

من تاريخ الجزائر

مزاب بلد كفلح

دراسة تاريخية اجتماعية
تلقى أضواء على نشأة هذا البلد وحياة ساكنيه

بقلم

أ. هـ. محمد الطلاوي

مزاب

بلد كفاح

دراسة سياسية اجتماعية

تلقى اضاءا على نشأة هذا البلد وحياة ساكنيه

بمعلم

ابراهيم محمد الطلاي

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله الذى انفرد بالحول والقوة ، وبيده الهداية والتوفيق ،
ومنه نستمد الرشد والتبصرة ، والصلاة والسلام على المبعوث بهداية
الاسلام ، الداعى الى الله ، وعلى آله وأصحابه الذين سلكوا نهجه ،
واتبعوا سننه •

هذه ملاحظات أسجلها ، وصور أجمعها ، لناحية من نواحي
وطننا العزيز - وادى مزاب - أدعوك أيها القارىء الكريم الى
الوقوف عليها ، وتبعتها ، ملاحظات ومناظر ليست بعيدة عنك ، ولا
من الغرابة والابهام الى درجة تستعصى فيها على الفكر ، وانما كثيرا
ما يمر عليها الانسان عابرا لا يأبه لها ، لأنه يجهل واقعها ، أو
يتصورها على غير ما هي عليه •

والباعث لتسجيل هذه الملاحظات ، والاقدام على جمع هذه
المعلومات هو ما يحيط من الجهل واللبس بهذه الناحية ، وبتاريخها ،
وحياة سكانها ، لاسيما وقد أصبحت فى السنين الأخيرة متجه كثير

من السواح ، ومقصد الزائرين ، سواء من أبناء الوطن في الشمال ،
أو من الأجانب الوافدين على الجزائر •

ومعرفتي الجيدة بهذه الناحية تجعل كتابتي - بعون الله - أكثر
تمكنا ، واحاطة عما لو كانت من غير الساكنين بها ، والمتصلين
بحياتهم •

وكثيرا ما منيت نفسي لو وجدت دراسة علمية ، ناضجة ، عن
هذه الناحية ، الراسخة في الاسلام ، العريقة في العروبة ، فتضيف
الى تراثنا المجيد تراثا قيما ، والى فخر الجزائر وأمجادها فخرا ومجدا ،
عند ذلك أكفى مشقة التعرض لشيء ليس من اختصاصي • ولكن
شاءت الأقدار أن يكون غالب ما كتب أو نشر في الصحف عن هذه
الناحية ، لكتاب أجنب ، غرباء عن هذا المجتمع ، وعن عاداته
وتقاليده • فجاءت كتاباتهم أقل ما يقال عنها : انها ينقصها النور
النافذ ، والجلاء المبين • انما سجلوا ملاحظات عابرة شاهدوها ،
فخدعتهم عن الحقيقة ، أو سمعوها عن غيرهم فأخذوها بدون محص
وتعير •

❧ واني سوف أقصر دراستي هذه على التعرض لتاريخ المنطقة ،
والظروف الباعثة على عمرانها ، وعلى بيان مظاهر الكفاح المرير الذي
قام به سكان هذه الناحية قديما ، ضمنوا لأنفسهم الحياة والاستقرار •

❧ كفاح في الناحية الاقتصادية لتوفير الرخاء ، ومغالبة الفقر الطبيعي
وجذب المعيشة ، كفاح في الناحية الاجتماعية ، لتكوين مجتمع
مسلم ، سالم من الانحلال والتفسخ ، كفاح في الناحية الفكرية
لاستتارة الأذهان ، ونشر الثقافة الاسلامية •

وفي هذا الكفاح ، وهذا التفاني والتحمل ، من جماعة حبست
نفسها على تحقيق المثل الأعلى والتشبث به مهما تكن الظروف ،
وعلى الثبات على مبدأ أمنت به ، وتعلقت بأسبابه ، لمثال رائع لما
تفعله المبادئ عند ما تشربها النفوس •
ومن الله نستمد العون والتأييد •

ابراهيم محمد الطلاي

منطقة مزاب

في واد جذب ناء عن أما كن العمران وعن الحياة ، وبين جبال
جرداء صخرية ، تكونت في صبر وأناة قرى ، ومدامر ، ونشأت
حولها في صمت مدهش ، واردة محيرة واحات ضئيلة ؛ تضمن
البقاء لتلك الديار ، بما تدر من ثمرات ، وما تضيفه عليها من ظل
يخفف عنها الحرارة المحرقة •

كان ذلك منذ رشح من الزمن لا يعلم مبدأه بالضبط الا الله
تعالى • وبذلك الصبر ، وبذلك الارادة الدؤوب ، استطعنا الآن أن
نرى هذه القرى، وهذه الواحات وقد بورك فيها ، فتمددت الواحات
أميالا ، تضم آلاف من شجر النخيل الثابت الصابر ثبات وصبر تلك
المنطقة ، تتخللها أنواع أخرى من الشجر ، وكأنها تشير الى رفاهية
الحياة ، ونعيمها الذي بدأت المنطقة تأخذ بقسط منه • وتكاثرت
المنازل والبيوت حول تلك القرى ، فتمطت في احتشام ، كما يمد
رجليه ويديه المنكمش في فراشه متمطيا ، وقد أفاق من نوم ثقيل
عميق • فأصبحت تلك القرى مدنا تضم آلاف من الناس ، ومنازل

تتعدد طبقاتها ، فى الكثير منها ما يوفر لساكنيها الراحة والمتعة معا .
 واذا سلكنا الطريق الوطنى رقم واحد ، من العاصمة ، متجهين
 نحو الجنوب ، فانا بعد سفرة طويلة ، نقطع فيها ستمائة كم ، منها
 ما يقرب من نصفها فى احضان الصحراء ، نجد أنفسنا وقد اشرفنا على
 هذا الوادى ، الذى لا يمتاز بشىء كبير يبدو لنا لأول وهلة ، ولكن
 بعد الاطلاع على ما فى المنطقة من طبيعة قاسية ، تصل درجة الحرارة
 فيها أحيانا الى الخمسين فى الظل ، ومن جفاف وشح فى المياه حيث
 تصل الآبار فيها الى عمق ستين مترا ، وبعد القاء نظرة على تلك المدن
 التى تبدو فى صورة فريدة ، وقد جمعت فى بناء مساكنها بين الطابع
 الاسلامى القديم ، وطابع محلى ، له روعته وجماله ، وغلى سكان
 المنطقة ومستواهم الحضارى من جهة ، والمنطقة التى يعيشون فيها
 من جهة أخرى ، كل هذه الأشياء تجعلك تجد نفسك فى ناحية لها
 ميزات ؛ تعمق وتتكاثر كلما فكرت وقارنت ، وتجد ذهنك تتوارد
 عليه تساؤلات شتى !

متى عمرت هذه المنطقة ؟ ما هى الأسباب التى دعت لتعميرها ،
 كيف عاش هؤلاء ؟ وما هى العادات المتأصلة فى هذه الناحية ؟
 ما مدى تناسب هذه العادات بالحاضر الذى نعيشه ، والثورة التى
 نعيشها ؟ وهكذا ...

ولعل فيما أعرضه عليك - أيها القارئ الكريم - ساوفق الى
 الاجابة عن بعض هذه التساؤلات ♦



منظر لبعض مدن مزاب

مبدأ عمران مزاب

لا يوجد فى مزاب شىء من الآثار الباقية ، أو الرسوم التى
 تكشف عنها الحفريات التى يقوم بها علماء الآثار ، لتدل على الزمن
 الذى امتدت فيه الحياة فى منطقة من المناطق ، ولا يعلم متى ابتدأت

الحياة في تلك الربوع وبين كانت أهلة ، وهل شهدت - ان كانت -
عمرانا مستمرا ناميا ، كما هو مشاهد فيها الآن ؟؟

انما المطمئن اليه أن وادي مزاب مرت عليه فترة من الزمن كان
عامرا ببعض القرى ، والمداشر ، غير القرى التي نعرفها الآن ، منها
ما انمحي ، واندثر ، ولم تبق منها الا رسوم أو أمارات تشير اليها ،
ليست أكثر من كدى انقراض تكدست ، أو جزء حائط ، أو بقية
مسجد ، ومنها ما بنى على انقاضها بعض القرى الموجودة الآن • (I)
كما يشير التاريخ الى وجود أقوام كانوا قد استقروا في تلك
الربوع ، قبل هجرة المزايين اليها من سدراته ، وتيهرت ، وأريغ ،
وغيرها •

وعلى ما يبدو أن هذه الحياة التي أشير اليها ، لم تعرف شيئا من
الازدهار والحضارة ، ولم يذق أهلها طعم الاستقرار والطمأنينة ،
نظرا للظروف القاسية التي كانت عليها الحياة في تلك الحقب من
التاريخ ، علاوة على قسوة الطبيعة وشدة وطأتها ، اذ لو كان هناك
عكس ما ذكر ، لبقيت الآثار من مبنى ، أو غيره ، يشير الى ذلك ،
والظروف المحيطة بالمنطقة تجعلنا نستبعد ذلك •

ويذكر المرحوم الشيخ الحاج محمد اطفيش ، والشيخ على دبور

(I) راجع رسالة تاريخ مزاب للشيخ اطفيش من ص 19 الى 27

أن مزاب كان عامرا بأقوام كانوا على مذهب المعتزلة ، استقروا في
هذه الربوع ، ومذهب المعتزلة من جملة المذاهب الاسلامية التي
انتشرت في شمال افريقيا بعيد الفتح الاسلامي كالصفرية ،
والاباضية • وذكروا أن القرية المسماة «أغرم نلتزديت» كانت من
جملة قراهم ، وهي الآن خربة بجانب العطف ، كما نجد مقبرة تحت
جبل «مليكة» تنسب اليهم ، وربما كانوا هم سكان القرية التي كانت
في موضع أفران الجير • كما تذكر التقايد التاريخية ، أن المصلح
الكبير المغفور له الشيخ محمد بن أبي بكر الريفى ، المتوفى سنة
440 هـ كان يرتاد هذه الربوع التي كانت مرعى وسوقا للبدو الرحل ،
وبفضله انتشر المذهب الاباضى فيها •

ولعل هؤلاء القوم كانت حرفتهم الرعى ، وتربية الأغنام ،
حسب ما يشير اليه اسم قريتهم ، البربرى ، «قرية الصوف» ويذكر
الشيخ دبور في كتابه (النهضة الحديثة) انهم من القبيلة البربرية
زناته ، وهي من أشهر القبائل البربرية بالناحية الغربية من القطر
الجزائرى • ويقول عنها المرحوم الشيخ مبارك الميلي : «زنانة أشبه
البربر حياة بالعرب ، لأن أكثر مواطنهم الصحراء ، يتخذون بيوت
الشعر للظنن» •

وان صح انهم من زناته ، نقدر استقرارهم في مزاب كان فرارا

من ملاحقة القبائل المنافسة لهم ، كما يشير الى ذلك التاريخ •
وكانت نكبتهم على يد بلقين بن زيرى سنة 369 . يقول المؤرخ
ابن خلدون فى الموضوع : «دوخ بلقين فى هذه السنة المغرب ،
وانكفأ راجعا ، ومر بالمغرب الأوسط ، فالتحم بواى زناتة ومن اليه ،
ورفع الأمان على كل من ركب فرسا ، أو أنتج خيلا ، من سائر
البربر ، وندر دماءهم ، فافقر المغرب الأوسط من زناتة ، فلا يبعد
أن تكون بعض بطون هذه القبيلة قد التجأت الى مزاب واحتمت
بشبكة من المطاردين .

استقرار المزابيين بالوادي

المتتبع لتاريخ منطقة مزاب لا يلمس الوضوح فى تلك الحقب
المشار اليها ، ولا يستطيع أن يضع الحجرة الأولى فى بناء تاريخها الا
ابتداء من القرن الخامس الهجرى أى العاشر الميلادى ، عند ما انتقلت
فلول الاباضية من الشمال بعد زوال الدولة الرستمية ، واشتداد
العبيدين ، الشيعة المناهضين للاباضية ، وينمو العمران تدريجيا عند
ما تعلموا من سكنى ورقلة ، وسدراتة ؛ الناحية التى نزحوا اليها ،
قبل استقرارهم بمزاب •

والأسباب التى دعت الى انتقالهم منها الى مزاب مجهولة ،
وحسب ما يذكر بعض المؤرخين أن من جملة الأسباب تخرج
موقفهم من أهل «ورقلة» حيث اعتبروهم عنصرا منافسا يضايقهم
بنشاطهم ومهارتهم التى اصطحبوها من الشمال الشرقى ، مقر الإمامة
الرستمية ، ولعل فى وخامة المنطقة أيضا ما زهدهم فيها ، فجعلوا
يلتمسون موطنًا ، أليق بهم وأنسب ، فمناطق السباح لا توافق سكان

النجد ، ولا نجد أليق وأصح هواء في تلك النواحي من منطقة مزاب الجبلية ، ثم كانت ثورة بن غانية الميرقي على الموحدين في الشمال وانحيازه سنة 625 هـ الى منطقة وادي ريغ ، وورقلة ، وما نكب به تلك الناحية ، ما جعل الكثير منهم يهاجر تلك المناطق ويتوافد على مزاب . يقول الشيخ مبارك الميلي عن هذه الثورة التي كلفت القطر الجزائري غاليا ؛ وكانت مدينة سدراتة - المدينة الجديدة التي بدأ أهلها يتذوقون طعم الاستقرار - من جملة ما أوقعه الحظ التعس في قبضته ، يقول : « دامت ثورة ابن غانية نصف قرن ، لم يجن الوطن منها غير الخراب ، فقد خرب كثيرا من قصور الصحراء بوادي ريغ وغيره ، وخربت تاهرت ، وقصر عجبية ، وزرقة الخضراء ، وشلف ، وحمة ، ومرسى الدجاج ، والقلعة » (I) .

ولا يبعد أن يكون اختيار الاباضية لمزاب أيضا تهربا من الظهور والتجمع في ناحية معتبرة ، حيث أصبحوا محل رية يهاجمون كلما ظهر منهم تجمع أو قوة . على أنه لا يؤخذ مما سبق أن عمران مزاب كان دفعة واحدة ، وبصفة جماعية ، إنما كان تعاوبا ، وفي فترات امتدت فيها الهجرة من هنا وهناك ؛ من ورقلة ، وسدراتة ، ووادي ريغ ، وجربة ، والساقية

الحمراء ، وتفيلات بالمغرب ، وجبل نفوسة بليبيا ، وغيرها . في مدة قرنين أو ثلاثة قرون . (I)

مدن مزاب السبع

أقدم مدن مزاب الحالية هي العطف ، ويرجع تاريخ تأسيسها الى سنة 402 هـ - 1012 م ، ثم بعدها مليكة ، ثم غرداية ، ثم بنى يزقن ، ثم بنوره . وهذه المدن متقاربة النشأة ، وبعدها بزمن طويل القرارة وبريان ، والأولى تبعد عن غرداية بـ 100 كم ، والأخيرة بـ 48 كم ، ويرجع عمران هاتين المدينتين الى القرن الحادي عشر الهجري ، فالقرارة عمرت في سنة 1040 هـ وبريان في سنة 1060 هـ حسب ما أفادني به الشيخ أبو اليقظان .

ونشأة هاتين المدينتين كان توسعا ضروريا ألجى اليه سكان مزاب بعد أن امتد العمران وكثر عدد السكان فضاقت بهم الوادي ، وقد حاولت القيلتان اللتان أخرجتا من غرداية أو خرجتا ، في ملابسات من الفتن والمنازعات ، الاستقرار بالاغواط مدة من الزمن قصيرة ، ثم نزحوا الى موضع القرارة ، وكان اذ ذاك مرعى ومنتجعا لأهالي

(I) يذكر الشيخ اطفيش عشائر في مزاب تنسب الى هذه الاماكن وان أصولها يرجع اليها .

تيقرت من أولاد جلاب ، والبعض منهم استقر في منتجع بريان ♦
والمدن الخمس الأولى متقاربة الموقع والنشأة ، فالعطف لا تبعد
عن غرداية إلا بـ 7 كم ، وبمرور الزمن واستمرار النمو ستصبح هذه
المدن أو القرى مدينة واحدة ، فيما بعد .

والملاحظ أن هذه المدن كلها أنشئت فوق جبال ، والمسجد يجعل
مقره في القمة ، ثم بنى وتنشأ البيوت من حوله ، وتسور القرية
أخيرا بسور يحفظها من الطوارئ والغارات ♦

والقرى أو المداشر التي أشرت فيما مر إلى وجودها ، قبل المدن
الحالية كانت أنشئت في سفح الجبال ، أو على تل قليل الارتفاع ،
وما يعلل هذا ؛ هو أن هذه المداشر لم تنشأ - حسب ما يبدو - في أول
أمرها على قصد الاستقرار ، إنما كان يبنى شخص كوخا أو بيتا ، ثم
يأتي زميله أو رفيقه فيبنى آخر بجانبه ، ليستأنس به ، حتى تتجمع
عدة بيوت تكون قرية ♦ أو أن هذه المداشر أنشئت أول ما أنشئت
على أساس الاستقرار ، واختار أهلها السهل ، فمالوا إلى سفح الجبل ،
ثم سرعان ما تعرضت للغارات والنهب ، لكونها في متناول من يقصدها
فاستفادوا من تجربتهم هذه ، فأنشأوا وجددوا قراهم فوق الجبال
لتكون أمان ، فالقرية الأولى «تمزرت» والقرية التي كانت أسفل
«مليكة» ، في موضع أفران الجير ، وقرية «ترشى» و «أكنوناي»

هذه المداشر كلها لم تكن على جبل ♦
والقرى الحالية لم تكن على العمران والاتساع المشاهد عليها



مدخل القرية القديم في بنى يزقن

الآن ، فغرداية مثلا جددت الأسوار فيها ، والأسواق ثلاث مرات ،
وكذلك القراة مع كونها حديثة العهد ♦
وبنى يزقن كان سورها في منتصف الجبل الذي بنيت عليه ،
ثم امتدت إلى ما عليه سورها الآن ، وكذلك مليكة ، كانت محصورة
في الناحية الشرقية الجنوبية ، ثم امتدت إلى أعلى ناحية الشمال ♦

وكلما تتسع القرية اما بتزايد السكان، وهو الغالب، أو بانضمام بعض المهاجرين الى مزاب من النواحي الأخرى، يضطر أهلها الى الزيادة في مرافقها العامة، أو تجديدها، فالأسواق كانت تغير أماكنها، أما المسجد فكانوا يضيفون اليه بيوتا أخرى وديارا تشتري من أصحابها، فلم يبق مسجد من مساجد هذه القرى لم تضم اليه اضافات مرتين أو ثلاث، ولا يسمحون بانشاء مسجد آخر لناحية من القرية، محافظة على جمع الكلمة، وحذرا من الفرقة، ولم تشذ عن القاعدة الا العطف، أما المسجد الذي بجانب «ملكة» في الناحية الشمالية الشرقية، فهو بقية من قرية كانت هناك، ولا تزال خرائبها ماثلة، هدمت الديار وصب عليها جام غضب الحوصم، وترك المسجد احتراماً له، وهذا ما أميل اليه، كما أشار الى ذلك بعض أفاضل القرية ♦

ومع كون هذه القرى فوق الجبال، ومحصنة بأسوار، وربما بأبراج أيضا، فانها لم تسلم من غارات أهل البادية، والأعراب، ومن يعيش على السلب، وكثيرا ما يصد الهجوم خارج الواحة. وربما هوجمت القرى أو بعضها، من طرف قوة آتية من الشمال لتقوم بحملة تأديبية على العرف السياسي، أو طمعا في جمع المال، واثراء خزانه الأمير أو القائد، كما فعل أبو عمرو عثمان بن محمد بن عزوز من

ملوك الحفصيين «حيث خرج الى أهل تقرت، وأغرمهم مالا، وهدم سور البلد، وقدم عاملا على ورقلة، وأخذ منها ومن مزاب مالا جليلا، وقفل راجعا، ودخل تونس سنة 870 هـ، اه ♦ (من تاريخ الجزائر نقلا عن الزر كلّي)

ويشاهد المتجول في النواحي القديمة من هذه القرى نماذج للتكتيك الحربى، وحيل الدفاع عن القرية، في تخطيط بعض الطرق وبناء المساكن، بحيث تجد الطريق ملتوية أحيانا، التواء لا مبرر له، لا تستطيع أن تعرف - وأنت الغريب عن القرية - متى تنتهى، ولا كيف تلتوى، ولماذا انبعجت هذه الزاوية؛ ولماذا انحسرت الأخرى وهربت عن الطريق، مع ضيق المسافة جدا، بين انعطاف وانعطاف، كما نجد الأبراج التى بنيت على أربع أو خمس طبقات على غاية من حسن مراعاة استراتيجية الحراسة، وعلى مدى نقط متقابلة، ينتقل الخبر اليها واحدا اثر الآخر بالاشارات الضوئية أو غيرها فى أقرب وقت، ثم ان الديار كلها فى القرية متلاصقة، ومتساندة، ويراعى فيها علو معين، فيستطيع من فى الناحية الشرقية مثلا، أن يقطع القرية كلها الى الناحية الغربية، والعكس، أما الطرقات فقد احتالوا لها، بتسقيف مساحة من عرض الطريق فى أماكن معينة.

لا نجد في الأسباب التي يذكرها علماء الاجتماع لعمران منطقة ما ، وتوافد الناس عليها سببا واحدا يتوفر في مزاب ، فليس منطقة زراعية ، ولا ناحية صناعية ، بمعادنها وموادها الأولية ، التي تساعد على ازدهار صناعة ما به ، وليس على ممر تجارى ، أو ملتقى طرق القوافل ، وليس ميناء على بحر له أهميته ، الى آخر تلك الأسباب •

والسبب الوحيد الذى جعل الاباضية يستقرون به ، والبعض منهم يقطع الصلة بما ألفه في موطنه ومستقره وينتقل اليه وينضم الى اخوانه ، انما هو العقيدة ، نعم العقيدة التي جعلت أجداد المزابيين يستهينون بملاذ الحياة ، ويضحون بالرخاء والنعيم ، ويتغلبون على الحب الطيعي ، والحنان الفطري لمواطنهم الأولى ، فالبلدان التي تركوها ، أو رغبوا عنها كانوا يفتنون فيها عن مذهبهم وربما أيضا عن ايمانهم واسلامهم ، ألم تكن العصبيات بين المذاهب الاسلامية على أشدها ، في تلك العهود ، ثم ان الأمراء والملوك غير الموفقين - وكثير ما هم - يعتبرونهم عنصرا مشوشا ، لا يرضى الا بالحق ، ولا يسكت مدهانة ، ولا يغضى عن مكروهه ، فهم قوم يؤمنون بصدق وحماس ، ان الساكت عن الظلم ظالم ، وان المتغاضى عن

الباطل مبطل ، ثم كيف يكون مقامهم في مكان لا يستطيعون فيه تطبيق نظرياتهم ، التي اعتنقوها ، والمبادئ التي آمنوا بها ، ان سكتوا قصرُوا عن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وان تكلموا وتحركوا قبلوا بالعدوان والتشريد ، وان سكتوا فسلموا من هذا وذاك لم تسلم مبادؤهم من الضياع والذوبان وانساقوا الى التيار العام ، شأن الأقليات الصغيرة ، وتلك سنة التاريخ •

ولأجل ما تقدم آثروا هذه المنطقة النائية التي لم تتوفر فيها مرافق الحياة ، ولكن أمكنهم فيها أن يحافظوا على مذهبهم ، وأن يطبقوا فيها ما استطاعوا من المبادئ الاسلامية ، ونظموا عليها حياتهم الاجتماعية ، وفي هذا غنى عظيم ، حيث كانت هذه المنطقة بعيدة عن الاحتكاك الخارجى بالأمم الغير المسلمة ، التي بدأت تهدد سواحل المغرب العربى ، كما انها تتمتع بحصانة طبيعية ، بما يحيط بها من رمال وقفار ، منطقة فقيرة خالية من مباحج الحياة ، ومتعها ، تزهدها فيها الأنفس ، وتحيد عنها الأطماع ، أطماع المستعمرين الذين ينظرون الى الوطن الاسلامى نظرة تربص ، واطماع الرؤساء والأمراء الذين اتخذوا الشعوب مطايا لأغراضهم ، وقضاء نزواتهم ، فأذلوها ، وأرهقوها ، واستبدلوا ذلك بمهمة الذود عن الاسلام ، وتوفير الاستقرار للنفوس •

المذهب الاباضى ومبادئه

نجد أنفسنا - ونحن نؤرخ للمنطقة - مضطرين الى القاء نظرة عابرة ، على المذهب الاباضى ؛ المنهج الذى اختاره غالب المزايبين من بين المذاهب الاسلامية ، وكان له أثر كبير فى حياتهم الاجتماعية ♦

والمذهب الاباضى ليس مذهباً سرى كما يحلو للبعض أن يسلكه فى اعداد المذاهب السرية ، وما كان طريقة من الطرق التى عرفتها الأقطار الاسلامية فى عهود التأخر ، انما كان مذهباً من أقدم المذاهب الاسلامية ، مبنية أصوله ومبادئه على المبادئ والأصول الاسلامية ، ومستمدة من المعين الذى تستمد منه سائر المذاهب الاسلامية : الكتاب والسنة ، والاجماع ، والاجتهاد ♦

يقول الشيخ السالمى فى الموضوع :

والأصل للفقهاء كتاب البارى اجماع ، بعد سنة المختار وانى لا أبحث فى هذا الفصل هذه المبادئ وأشخصها لأن ذلك يخرج بنا عن الموضوع ، ان ما أعنيه أن أذكر المبادئ التى لها تأثير بعيد فى حياة متعمى هذا المذهب ، حتى ظن البعض انها

خاصة بهم ، دون غيرهم من المسلمين ، وظنها الآخرون تشددا في الدين ، وارهاقا للنفس ، مع أنها الحق الذي جاء به الاسلام ، انما غفل عنها البعض واستثقلها ، وتشبث بها الآخرون والتزموا بها •
وتنحصر هذه المبادئ في ثلاث نقط :

I - الاسلام عقيدة وعمل :

عزة الاسلام ، ونوره ، وكرامة الله للمسلم لا تحصل للمسلم بمجرد أن يؤمن بالله ورسوله ، ويقر برسالاته ، ثم يقف عند هذا الحد ، وتقتصر نفسه عن اتباع أوامره ونواهيه ، والمسلم بصدق هو الذي يجمع في سيرته وسلوكه بين الايمان بالله ، والاقرار بوحدانيته ، وبين اتباع نهج الاسلام الذي آمن به ، وأقر بحقيقته .
يقول صاحب عقيدة العزابة (I) : «ان الدين عند الله الاسلام ، والاسلام لا يتم الا بالقول والعمل ، أما القول فشهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وأما العمل فالإتيان بجميع الفرائض ، والترك لجميع المناهي ، •

وأما أن يكتفى المرء بالنطق بكلمة الشهادة ، فلا يفنيه ذلك عند الله شيئا، نعم هو مسلم داخل تحت المخطط العام للأمة الاسلامية

(I) رسالة جمعت مسائل العقيدة الاسلامية على المذهب الاباضى ترجع الى العهود الاولى من فتح شمال افريقيا عهد التأليف بالبربرية ترجمها الى العربية الشيخ عمرو بن جميع الليبي .

ولكنه ناقص اسلامه ، معاقب على تفريطه • والفروض الاسلامية لم تنزل على النبي (ص) للايمان فحسب • وما كان دين الاسلام الا دين عقيدة وعمل • حدد للمسلم طريقه ، وفصل له ما أحل الله له وما حرم عليه ، ورسم له الخطة التي يجب عليه أن يسير عليها في الحياة ، فلا مطمع في المغفرة للمقصرين المصريين ، الذين قعد بهم العمل بفروض الله ، ولا شفاعة للعصاة الملازمين للمعاصي «ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة» .

هذا ملخص اعتقادهم في هذه القضية ، أما نظرية المذهب الاباضى لمن أدخل بواجبه من سائر المسلمين فانه يعتبره مسلما ، ولا يخرج من المخطط العام للاسلام ، كما يفعل بعض الغلاة من الخوارج فالاباضية لا يستحلون دمه ، ولا يعتبرونه مشركا ، انما هو من المسلمين العصاة الذين أدخلوا بواجبهم ، يجب عليهم نحوه نهيه عن غيه ، وارشاده ، وان أبى هجره ، أغنى يعتبرونه متمردا عن المجتمع الطاهر ، دون أن تسقط حقوقه كمسلم ، فله ما للمسلمين ، وعليه ما على المسلمين •

ومما يبهج القلب أن غالب علماء المسلمين في العصور الأخيرة ، قد رجعوا الى هذا المبدأ ، وصاروا يحملون العامة عليه ، وللاستاذ الامام محمد عبده الفضل في ذلك، وقد اقتدى به المصلحون من بعده •

ولست بهذا أنهم المذاهب الاسلامية الأخرى بتشطير الاسلام، وطرح جانب هام منه من الحساب ، فهى بريئة من هذا ، انما المأخذ على بعضها انها فتحت باب المغفرة بدون قيد التوبة ، والتوبة ما هى الا ندامة عما مضى ، وكف عنه ، وتجديد العمل الصالح ، ثم جعلهم الشفاعة فى كتبهم ومواعيظهم لكافة المسلمين بدون شرط ♦ وفى هذا ما يجرى العامة ، ويرخى لها العنان ، وكان ينبغى لهم أن يأخذوا بالأحزم ♦

يقول الشيخ على معمر فى الموضوع : «اننى أزعم - وقد أكون مخطئاً فى هذا الزعم - انه لم يضر الاسلام ، ولم يهونه فى نظر أتباعه ، ويجرى المسلمين على ترك فرائضه شئ مثل ما أضرب به هذا القول الذى يضمنى صفة الاسلام الكامل على رجل ليس له من الاسلام الا قوله لا اله الا الله ، وتشدق بعض المتفقهين الذين يستغلون ما حفظوا دون فهم ، ويجتهدون لأرضاء العامة والجهلة بتهوين أسباب المعصية لهم ، قائلين ان جهنم لم تخلق لمن يوحد الله» ♦

2 - الولاية والبراءة :

يقول الله تعالى فى سورة التوبة : «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض» ويقول فى سورة النساء يعرض بالذين تخلوا عن واجب الهجرة ، وعجزوا عن متابعة الركب الاسلامى بالهجرة الى

المدينة «فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله» ♦ وعن الرسول عليه السلام «من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله ، فقد استكمل الايمان» ♦

بهذه الرابطة الروحية قوى الله الأواصر بين المسلمين وجعلهم اخوة يتحابون ويتعاطفون لله ، ويتآذرون ، ومن أخل بهذه الرابطة ، وهذا الوثاق الذى ربط الله به المسلمين بعضهم الى بعض ، فقد أخل بواجبه المقدس نحو الاسلام والمسلمين ، وبهذه الرابطة الروحية كون الله من قبائل العرب المتنافرة ، ومن الأجناس المتباعدة ، أقوى رابطة ، وأمتن جماعة عرفها التاريخ ذاب أمامها ما عداها من الصلات والروابط ♦

وولاية المسلمين وجبهم واعانتهم ، والبراءة من المشركين كافة ، والمنافقين ونبذهم وقطع الصلة بهم ، فريضة واجبة لدى جميع المذاهب الاسلامية ، وهو ما يسمى بولاية الجملة ، وبراءة الجملة ♦ ولكن الاباضية رأوا أن يخطوا خطوة أخرى نحو هذه الرابطة ، أو الأخوة الروحية التى جعلها الله بين المسلمين ، فأوجبوا اعتماداً على الآيات والأحاديث الواردة فى الموضوع ولاية الأشخاص ، وبراءة الأشخاص ، فاذا شاهد مسلم من أخيه المسلم وفاء بدين الله ، وأداء للواجبات وتفانيا فى الاسلام يجب عليه أن يخصه بمزيد من الحب

ويفتح له صدره ، ويقوى به صلته ، وفي الحديث الشريف «ان من عباد الله أناسا ما هم بأنبياء ، ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء ، بمكانهم من الله ، قوم تحابوا بروح الله على غير ارحام بينهم ولا أموال يتعاطونها ، فوالله ان وجوههم لنور ، وانهم لعل نور ، ولا يخافون يوم يخاف الناس ، ♦

كما انه اذا شاهد من مسلم آخر تهاونا بدين الله ، وتلكؤا فى أداء الواجبات ، وضعفا للروح الاسلامية فيه ، يجب عليه نهيه ، وكرهه ، وهجرانه ، واذا أصر على المعصية ، واستعذب الخطيئة ، انفصم من الرباط المقدس الذى يربطه بالمؤمنين ، وكان ابنا عاقا فى البيت الاسلامى ، ونشازا بين المسلمين ♦

وهذه المراقبة الدقيقة ، وهذا الاخلاص المتناهى للاسلام ومبادئ الاسلام ، تجعل على المجتمع حراسة شديدة من الدخلاء والمفسدين ، كما تحوط بعين ساهرة ذوى النفوس الضعيفة والارادة الرخوة ، وتراقبهم ، فاما أن ينسجموا ، وينصهروا فى المجتمع الاسلامى ، الطاهر ، فذاك هو المطلوب ، واما ان يضعفوا فينهلوا من الثقوب ، عند ذلك ينبغى تركهم ، والانزواء عنهم ، حتى يشعروا بالوحشة ، وتلو كهم الفردية ، فيؤوبون الى فاطر السماوات والأرض ويجددون الصلة به وبالمسلمين .

ولهذا المبدىء أثر عميق فى المجتمع المزبى ، واليه ترجع السلطة الروحية التى اكتسبها مجلس العزابة ، وسير بها المجتمع فترة من الزمن طويلة ♦

3 - الخلافة الاسلامية :

الخلافة الاسلامية أعلى سلطة فى الاسلام ، لا يمكن أن تخضع لنظام وراثى ، أو تبقى محصورة فى قبيلة خاصة ، انما يجب أن تراعى فيها الكفاءة ، والاستطاعة ♦ كفاءة فى التكوين ، كفاءة فى السيرة ، وفى التسيير ؛ استطاعة للعمل بمبادئ الاسلام ، والقيام بها ، هذا هو رأيهم فى هذه القضية الهامة ، ولعلها هى نقطة الانطلاق ♦

ومنذ أن اختلف الصحابة رضوان الله عليهم ، وحدثت بينهم تلك الحروب الطائشة ، واستولى على الخلافة معاوية بن أبى سفيان ، وحولها ملكا عضوضا ، واقترب المسلمون شيئا ، منذ أن حدث هذا ، اتخذ الاباضية موقفا من هذه الفتن ، والفرق ، بأن تمسكوا بما كان عليه الصحابة الأولون ، منذ أن توفى الرسول (ص) ، فلم يوافقوا هذا ولا ذاك ♦

«وكان موقفهم مبنيا - حسب ما تقدم - على أن الخلافة ، التى هى أهم مركز ، وأقوى سلطة فى الاسلام ، لا يمكن أن تحصر فى بيت خاص ، أو قبيلة معينة ، ربما لا يوجد فيها من ذوى الكفاءات

الا النادر القليل ، وتعرض الخلافة الاسلامية الى عبث الطامعين ،
والمخدوعين عن أنفسهم ودينهم ، ثم يضرب صفحا عن بقية المسلمين
من ذوى الكفاءات ، والأخلاق العالية ، ♦

وتماشيا مع هذا المبدأ اعتزلوا الفتن والثورات التى تلت هذا
الحلاف ، وكان مبدأ المطالبة بالخلافة فيها ، قائما على أساس من الوراثة
والدم ، كالثورات التى قام بها الزيريون ، والعلويون ، والعباسيون .
«ولذلك يحلو لكثير من المؤرخين أن يسموهم بالخوارج ولم
يجمع بين الاباضية والخوارج الا هذا المبدأ ، هو مبدأ الرجوع بالخلافة
الى الكفاءة ، والنزاهة ، بدون مراعاة النسب واشتراط القبيلة ، والجهر
بهذا المبدأ الذى نهج عليه الصحابة الأولون ، وارتضوه لأمة محمد
(ص) ، وفيما عدا ذلك فالاباضية أبعد الناس عن الخوارج فى فهمهم
للاسلام ، وتطبيق أحكامه» (I) ♦

هذه المبادئ الثلاثة هى التى كان لها أقوى الأثر فى حياتهم
الاجتماعية ، وتلوينها بتلك الصبغة التى نراها ، ولست أدعى أننى
أحصر هذا المذهب بنظرياته ، وآراء مجتهديه ، وتفريعاتهم ، فى هذه
المبادئ الثلاثة ، انما قصدى أن أذكر ما له أقوى صلة وتأثير على
الحياة الاجتماعية ، حسب - ما بدا لى - وفيما عدا ذلك فهو مذهب

(I) الفقرات من كتاب الاباضية فى موكب التاريخ .

كغيره من المذاهب الاسلامية بأصوله وفروعه ، يتفق مع البعض
فى أشياء ، ويختلف مع الأخرى فى شئ ، وهكذا ♦ ♦ ♦ شأن المدارس
الفكرية الاسلامية ♦

الحياة الاجتماعية في المنطقة

لقد سبق لنا في المقدمة أن ذكرنا أن الغرض من هذه الدراسة هو تقديم صورة مشخصة عن حياة المزايين في هذه المنطقة ، ومدى ما بذلوه من جهد من الناحية الاجتماعية وتنظيم شؤونهم ، ومن الناحية الاقتصادية ومغالبة الفقر الطبيعي لضمان الاستقرار ، والبقاء لأنفسهم ، ومن الناحية الثقافية لتنوير الأفكار ، والتغلب على الجهل والبدع ♦

ومع ما يوجد من تداخل وتلازم بين هذه النواحي ، فاني سأحاول تجريد كل واحدة ، والحديث عنها على حدة ، تقريبا للواقع ، وتسهيلا للتشخيص ، والا فلا نجد من الفواصل والحواجز ما يجعل كل ناحية مستقلة بنفسها ، لا تخضع لتأثير غيرها فيها أو التأثير فيه ♦

وستجد أشياء أعدها في ناحية ترى أنت عدها في ناحية أخرى انما ذلك مظهر لهذا التمازج الذي أشرت اليه ♦

وأهم مظهر تتجلى فيه الحياة الاجتماعية بمزاج هو نظام المزابة الذي استقر فيه منذ ما يربو على تسعة قرون ، وكان له أعمق الأثر في النفوس ♦

نظام العزابة

تمر على المبادئ والمذاهب حالات عصيبة ، تجعل المتممين اليها في مأزق حرج ، فاما ان يختاروا التشبث بها ، والمحافظة عليها ، وفيه من الجهد والعنت شيء كبير ، واما ان يسلموها ، ويتنكبوا عنها ، وفيه من وخز الضمير ، وثقل المسؤولية عبء ثقل .

ولقد أتيح للإباضية فرصة من الدهر ليست قصيرة ، أقاموا فيها دولة في غرب الجزائر ، على المبادئ التي طالما نادوا بها ، وأخلصوا لها ، وكان الامام الثاني أبو عبيدة مسلم التميمي المحدث البصري يقول لطلبة العلم المهاجرين من المغرب «وددت لو ظهر هذا الأمر ، ولو يوما واحدا بالمغرب ، ولا أبالي اذا مت» (I) .

وقد حقق الله هذه الأمنية في انشاء الدولة الرستمية الإباضية سنة 160 هـ في تيهرت ، وبزوالها زال الحامي المكين للمذهب الإباضى - وكثيرا ما تحمى الدولة ، وتمتد بالنماء والنفوذ مذهبا من المذاهب - وانهار سنده الذى كان يحتذى به ، وشعر معتقوه بمرارة الانهزام ، وخيبة الرجاء معا ، ولعل في القول المأثور عن الامام الأخير أبو يعقوب أفلق لأصحابه وهم في انكسارهم فارين الى وارجلان : «افترقوا ولا

(I) ينسب بعض المؤرخين هذا القول الى الرائد الاول الذى نشر المذهب الإباضى بشمال افريقيا «سلمة بن سعد» .

تجمعوا ، فمهما اجتمع منكم ثلاثة الا وطولبوا ، فى هذا القول ما يوضح هذه المرارة ، ويبين مدى يأسه .

غير أنه لم يهن عليهم أن يستسلموا للواقع ، ويتركوا الحوادث تجرفهم فى تيارها ، فقد حاولوا الوفاء لتلك المبادئ ما أمكن لهم ، فى أما كنهم التى نرحوا اليها .

وقد اهتدى المصلح الكبير الامام أبو محمد بن أبى بكر الى وضع نظام محكم يحفظ للمذهب مبادئه ، ويمده بروح وحياة ، دون أن يتعرض فى هذا النظام لذوى السلطة والحكم من الأمراء وغيرهم . ونظام العزابة نظام اجتماعى مبنى على مراعاة الدين والمحافظة عليه ، والقيام بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وارشاد الجهالة والأغرار . ولهذا النظام يرجع الفضل فى بقاء رونق الاسلام ، وطهارته فى مزاب فترة من الزمن ، طويلة ، وفى محافظة غالب السكان على تعاليم الاسلام واتباع نهجه .

وقد كان واضع هذا النظام حكيما الى أبعد حد ، فلم يترك ناحية من النواحي الاجتماعية الا وجعل لمجلس العزابة عليه اشرافا مباشرا أو غير مباشر . وحسب ما يبدو أن هذا النظام قد أدخلت عليه تحسينات أوحى به الحاجة ، وتعاقب الأحداث ، وتجاربها ، ويتجلى ذلك فيما سطر من هذا النظام فى الكتب القديمة ، وما هو متبع عمليا الآن .

مجلس العزابة

العزاب هو من يعزب عن الدنيا ومغرياتها ، ويتجه الى الآخرة والدعوة الى الصلاح والتدين ، بارشاد الناس وتوجيههم .
ويتدب لهذا المجلس الشخص الذى اتصف بما ذكر، واكتسب بسيرته المستقيمة فى الحياة ثقة مواطنيه ، واعجابهم ، بنقائه وصلاحه ،
ويتدب لهذا المجلس من طرف كبار العزابة من الشيخ والامام ومن اليهما ، بعد استشارة ذوى الصلاح فى القرية ، واذا رضى بالدخول فى هذا المجلس يصبح عضوا من أعضائه تسند اليه مهمة من المهمات ،
وفيما اذا تبين عدم صلاحيته فللذين انتدبوه الحق فى عزله ، وإبعاده عنهم ، ولا ينتدب اليه فى الغالب الشخص الذى لا يتصف بما ذكر .
وتلك الصفات التى يتمتع بها هؤلاء الأعضاء بين المواطنين هى التى تضى عليهم سلطة روحية ، فتنفذ اوامرهم ، وتغنيهم عن السلطة المادية التى تعوزهم .

والعضو المنتمى لهذا المجلس يكون حافظا للقرآن الكريم ، ومتفقا فى الدين ، وملازما لأحكام الشريعة فى سلوكه ، وربما يتسامح فى الشرطين الأولين مع من تسند اليه مهمات ثانوية .
ويتكون مجلس العزابة من اثني عشر عضوا ولكل عضو مهمة

خاصة ، ورئيس المجلس هو الشيخ أو المفتى ، وهو الذى يتولى الوعظ فى المسجد والتدريس ، كما أنه يرجع اليه فى الفتوى غالبا ، وامام ، ومؤذن ، ووكيل أو وكيلان يشرفان على أوقاف المسجد ، ويصرفانها فى مواضعها ، وثلاثة معلمين «فقهاء» لتعليم الصغار ، والسهر على الأمن ، ومحافظة النظام فى المسجد أو غيره ، وخمسة أعضاء مساعدون تسند اليهم مهمات اجتماعية ، كتجهيز الموتى فلا يترك هذا الواجب الكفائى للعامة ، ومن لا يحسن القيام به ، وربما يساعد أعضاء المجلس أفراد آخرون من منظمة الطلبة «اروان» ولهؤلاء نظامهم الخاص أيضا .
ويختلف هذا النظام اختلافا طفيفا بين حلقات العزابة فى القرى ، وهؤلاء الذين يتولون القيام بهذه المهام الثقيلة ، ويجندون أنفسهم لأعلاء كلمة الله ، لا يتقاضون أجرا على أعمالهم ، ولا يأخذون مرتبا خاصا من أوقاف المسجد ، اللهم الا الجزء العام الذى يأخذونه مع غيرهم ، عند ما تفرق صدقة أو ينفذ وقف من تلك الأوقاف وليس فى هذا كثير غناء . (I)

اتصال مزاب بالولاية العثمانين

اذا رجعنا الى الحقب التاريخية ، وما يكتنفها من غموض ، نشك

(I) ان أردت مزيد اطلاع على نظام حلقة العزابة ، فارجع الى ما كتبه الشيخ أحمد توفيق المدنى فى «تاريخ الجزائر» .

فى وجود اتصال وثيق بين أمراء الدول المتعاقبة على شمال القطر وسكان مزاب ، كما اننا لا نطمئن الى أن المزايين كانوا منغلين عنهم ، وربما كان هناك شىء من التبعية الاسمية ، فقط ، أو الاتصال الودى ، بدون أن يبدو لهذا الاتصال أثر فى تغيير النظم الداخلية ، أو حتى الاشراف عليها ، فقد كان جانبهم مأمونا من جهة ، كما كانت مضاربهم مرغوبا عنهم وبعيدة الشقة ♦

واذا نظرنا الى ماتنقله الألسن - ان صح أن نعتمد على ماتقوله - نجد شيئا من المداراة ، أو المبادلات الودية ، بين سكان مزاب وأمراء ورؤساء العشائر كأولاد سيدى الشيخ ، وأولاد جلاب فى بسكرة وغيرهم ، كما أنه يتأزم الجو أحيانا فتقطع هذه المداراة ، ويحل مكانها التحفز والتهديد ♦

وأول اتصال سجله التاريخ انما كان على عهد الولاة العثمانيين وربما كانت الخطوط الأولى لهذا الاتصال من طرف المزايين المهاجرين للتجارة والعمل فى مدن الشمال كقسنطينة والجزائر ♦ وهذا الاتصال كان شبه ترابط وتعاهد من الطرفين لضمان المصالح المتبادلة ، ولاستتاب الأمن ، وقد ترك ما عدا ذلك للمزايين يباشرون أمورهم بأنفسهم ♦

وقام المزايون من طرفهم بدفع أتاوة للدولة ، وبمساعدها

فى بعض الصناعات ، والخدمات الفنية التى تحتاج اليها . (I) ويعينون مثلا لهم لدى الباي ، يسهر ويقوم بتنسيق هذا التعاون وما يستلزمه ، وقد أشار الشيخ اطفيش فى بعض تقاييده الى أسماء بعض الممثلين أو الأمناء كما يسميهم والى تاريخ تعيينهم ، «وتسمى حمو بن صالح بن على أمينا فى الجزائر سنة 1212 هـ - 1798 م ، وفى سنة 1222 صار صالح بن سليمان أمينا فى الجزائر، هـ .

كما نجد فى رسالة للشيخ الحاج ابراهيم بن بيحمان رحمه الله ، المتوفى سنة 1232 هـ كتبها باسم أعضاء مجلس عمى سعيد ، الآتى

(II) اتصلت بمرجع تاريخى أثناء طبع الكتاب ، يرد هذا المرجع،الرابطه التى حصلت بين الولاة العثمانيين فى الجزائر وبنى مزاب ، الى الايام الاولى من قيام الحكم التركى بالجزائر، أيام المجاهد البطل خير الدين ومحمد حسن آغا . فالجنرال الفرنسى دوماس DAUMAS يذكر فى كتابه «عادات وتقاليد الجزائر MCEURS et COUTUMES de L'ALGERIE الذى أصدره سنة 1853 فى الصفحات 135 - 137 ما خلاصته :

«عند ما هاجم شارلكان العاصمة سنة 1541 ، وتمركز فى بعض التلال خلفها وفى برج مولاي الحسن المدعو FORT L'EMPEREUR خنق الاسبان العاصمة وطوقوها . فقامت جماعة من المزايين بعملية فدائية خطيرة اذ هاجموا هذا البرج ونسفوه وأسكتوا مدفعيته . وبفضل هذه العملية سلمت العاصمة من قنابل الاسبان واستطاع المحاربون الجزائريون أن يجلوهم عنها ثم رجعوا الى البحر يجرون أذيال الهزيمة . فكوفئوا بتضحياتهم هذه أن جعل لهم الداي ممثلا خاصا بهم فى مجلس الشورى» .

ولعل الشيخ الحاج ابراهيم بن بيحمان فى رسالته يشير الى هذه الحادثة عند ما يذكر أنهم تحملوا المسؤولية التى عجز عنها الاشهاد . الخ .

ذكره ، عند ما أخضع صالح باي صاحب الولاية الشرقية ، جنوب
قسنطينة ، وألحق الاغواط بولايته ، سنة 1785 ، فأراد أن يضم مزاب
اليه أيضا، ويفرض عليه ما يبدو له تبعا للجنوب القسنطيني الذي بسط
عليه نفوذه ، عند ذلك كاتب المزاويون ممثل الداي في «تيطرى»
يشكون اليه ذلك ، ويستنكرون ما عزم عليه الباي ، من تصرف
بدون استشارتهم ، وأن عمله هذا يخالف المتفق عليه . قلت نجد في
هذه الرسالة أيضا ما يشير الى ما ذكرت ، ولو أنه لم يعين الكاتب
نوع الخدمات الفنية ، التي يقومون بها في الجيش التركي .
يقول في هذه الرسالة بعد الديباجة والبسط للقضية :

«من جموع بنى مزاب المشتكين اليك ما نزل بهم وحل بأسماعهم ،
وهي : انك تريد أن تضرب عليهم الغرامة المالية ، على يد صاحب
الولاية الشرقية ، غير ما كانوا عليه من قديم الزمان ، وتريد أن تبدل
أحوالهم ، المسطرة عليهم من الأسلاف والأجداد في الديوان ، مع
أن ما كانوا عليه لا يطاق وصفه ، ولا يحصى عدده ، من تحمل
الصنائع على عواتقهم ، والخسارة التي فيها ، المطوقة على كواهلهم ،
وقد تحملها السلاطين الجسام ، فلم يستطيعوها ، فسلموها لهم في
الساعة والحين ، وهربوا منها ، على رؤوس الأشهاد

ثم يقول : «وحاصل ما ذكر من الأمر والشان أن خدمة العسكر

الأعلى ، والجنند الأسمى ، هم بنو مزاب من قديم الزمان ، اما أن
تسمى فيهم بقواعد الأسلاف والأجداد، وتجرى عليهم قواعد العسكر
من غير تبديل قاعدة ، ولا تغيير ضابطة ، أو تسرحهم الى الخروج من
بلد الجزائر ، كما دخلوها بالأمان ليدبروا على أنفسهم .

عجبت لمن يقيم على خسف يراد به

وأرض الله واسعة الفضاء

♦ ♦ ♦ بتاريخ ذى القعدة من سنة ست ومائتين وألف من

الهجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة ، وأزكى التحية .

انتهى ما يهمننا نقله من المخطوط .

وقد كتبت الرسالة الى المسمى حسن الدولاتلى الباشا ، وكان
للمرسالة أثر حسن فأجيبوا عنها بعد شهرين بتراجع الداي عن رأيه ،
وكان ذلك على يد ممثلهم ابراهيم بن صالح .

كما نجد مخطوطا آخر بخط الكاتب أيضا باسم ممثلي جموع
بنى مزاب في مجلس عمى سعيد ، يشكون من قبيلة أولاد صالح في
جبال الشفة ، التي تتعرض للقوافل الذاهبة الى الجزائر ، أو الخارجة
منها الى مزاب .

وهذا النوع من الارتباط الوثيق الذي رأيناه يعلل ما يذكر من
أن المزاويين جندوا ألف متطوع أيام الغزو الفرنسي للدفاع عن الجزائر

ثم عن قسنطينة ، وما يقال في تصوير الحزن الذي عم مزاب عند ورود خبر سقوط العاصمة في يد الفرنسيين ، من أنهم مكثوا ثلاثة أيام لم توقد نار في بيت ، لا حزنا على موتاهم ، بل تقديرا لفداحة الخطب ، ومغبة ما ينتظر الاسلام والمسلمين في القطر الجزائري بعد سقوط هذه الدولة التي علقوا عليها آمالا .

خضوع مزاب لسلطة الاحتلال

بعد أن سقطت مدن الجزائر في يد الاحتلال الفرنسي ، وصفى الفرنسيون ثورة المجاهد الأمير عبد القادر ، أصبح موقف المزابيين حرجا جدا ، ولاسيما بعد أن تم احتلال الاغواط بوابة الشمال بالنسبة لمزاب ، وأصبح بعد المسافة الذي كان عاصما للمزابيين ، وعسر الحياة في الصحراء على من لم يألفها لا اعتبار له ، عند ذلك أيقنوا أن وسيلة اخضاعهم واذلالهم في متناول المحتلين .

وربما السنون التي عاشها التجار المزابيون ابان الاحتلال في مدن الشمال ، ومشاركتهم في الدفاع عنها مع أبنائها ، والأسلوب التخريبي الذي شاهده ، والقتل الجماعي الذي استعمله الفرنسيون بكل ناحية تقع تحت أيديهم ، كل هذه العوامل أكسبتهم مرونة سياسية ، استعملوها مع الفرنسيين بعد احتلالهم للاغواط ، لينقذوا

أنفسهم من المصير الذي ينتظرهم ، ثم ليضمنوا لأنفسهم بقية من حرية التصرف ، فوفدوا من قبلهم وفدا الى الاغواط أمضى مع الجنرال الكونت دي راندون ، معاهدة تعرف بمعاهدة 1852 باسم الوالي العام على الجزائر ، حفظت لمزاب شيئا من الاستقلال الداخلي ، اذ كان أهم ما فيها : أن الفرنسيين لا يتدخلون في شؤون المزابيين ، وخاصة منها الدينية .

ثم بدأت الأحوال الاجتماعية في مزاب تتغير ، ونظم العزابة وسلطتهم تنحسر شيئا فشيئا عند ما تركز الفرنسيون بمزاب سنة 1882 في ظروف يطول شرحها .

وبعد هذه البسطة عن الترابط الذي كان بين الولاة العثمانيين والمزابيين ، نعود الى الحياة الاجتماعية في مزاب ، والحديث عن الهيئات التي كانت تسير مجتمعه .

السلطة المسيرة في مزاب قديما

لا يستقيم النظام في مجتمع ما ، ولا يسوده العدل ، والطمأنينة الا بسلطة مسيرة ، قادرة على رعى حقوق الأفراد ، وتسييرهم ، وهل العزابة وحدهم - وقد سبق أن قلنا عنهم : انهم موجهون فحسب ، لما لهم من سلطة روحية - يستطيعون أن يسيروا المجتمع المزابي

الذى بدأ ينمو شيئاً فشيئاً ، وتنمو معه المشاكل والحاجيات كذلك ؟
للإجابة عن هذا السؤال نقول : إن السلطة فى هذه الديار كانت
ترجع الى العزابة ، رغم كون هيئتهم خالية من السلطة المادية ، والقوة
الزاجرة ، وإن كان لدولة من دول شمال القطر ، شبه اتصال ودى ،
فإن مباشرة شؤونهم والاشراف عليها يرجع دائماً الى هيئة العزابة ،
وقد تساعدها على ذلك الهيئة المدنية «وهو ما يشبه فى نظامنا الحاضر
الهيئة البلدية» التى تتكون من ممثلى العشائر فى المدينة ، أو القرية ،
ولكن الأمر دائماً يرجع أخيراً الى العزابة ، وخاصة الأمور التى لها
مساس بالشريعة ♦

وقد حكى لنا التاريخ عن أشياء تمثل مظهر السلطة فى المدينة ،
كان الاشراف عليها للعزابة ؛ فهم الذين يتولون الفصل بين
الخصوم (I) ، - والترافع يقع فى صحن المسجد بين صلاتى الظهر
والعصر - وهم الذين يتولون الحراسة فى المدينة ، تساعدهم فى
ذلك منظمة اروان - «هيئة الطلبة» ♦

وهم الذين يسهرون على المحافظة على المصالح العامة ، وتنظيمها ،
كالأسواق ، والمسالح ، وسواقى المياه ، والسدود ♦

(I) استمر القضاء فى يد العزابة الى أوائل القرن الحالى ، ثم استعوضوا
بالمحاكم الاسلامية التى أنشأتها السلطة الاستعمارية .

ولم تكن الحياة فى مزاب فى العهود الماضية تسير دائماً على هذه الحطة
المحمودة ، فقد تمر فترات ، يضعف فيها نفوذ السلطة الروحية ، التى
للعزابة ، بسبب ما ؟ كتمرد رئيس قبيلة ، أعجبته كثرة أتباعه ، أو تعوز
هيئة العزابة الشخصية والحكمة ، أو تقع فتن بين المواطنين ، فيتعقد
المشكل ، ويخرج عن نطاق العزابة ، عند ذلك ينفلت الزمام من يد
العزابة ، وينتقل الى رؤساء القبائل ومقدميها ، من المكاريس ، أو أهل
الفتوة ، وكمثال لما ذكرناه ، الاتفاق الذى أمضى مع الفرنسيين
بالاغواط - وقد أشرنا اليه سابقاً ، فقد كانت الهيئات الدينية غائبة
عنه ، تخرجاً من امضاء معاهدة مع المشركين ، وفعلًا فقد أمضى هذا
الاتفاق رغماً عنهم وفرض عليهم من طرف الهيئات المدنية فرضاً ♦
ويذكر التاريخ أيضاً أزمات فتن مرت على مزاب فى الخمسين
الأولى من القرن التاسع عشر عند ما اتسع العمران وكثرت معه
مشاكل الحياة ، إلا أن لهذه الحالات ، جولة خفيفة ، ثم تعود المياه
الى مجاريها ، ويستقيم الأمر للعزابة من جديد ♦

مجلس عمى سعيد

لقد تغلبت العزابة على المشاكل التى تنشأ عن اتساع العمران ،
وعن استقلال عزابة كل قرية بأمورها ، وعن تمرد العامة أحياناً على

هيئة أو قرار • فوفقوا الى نظام يخفف من حدة ما عسى يحدث عما ذكر ، ويصهر هذه الهيئات المتعددة في هيئة موحدة ، وكان لهذا النظام أعمق الأثر ، في استقرار الحياة ، وتنظيمها بمزاب ، ذلك هو المجلس الجهوى ، المسمى بمجلس عمى سعيد ، الذى يجتمع فيه ممثلو كل قرية من طلبة «عزابة» وعوام «أهل الفتوة» ، يتون في المشاكل الطارئة ، أو يسمعون الى الصلح بين قبائل متنازعة ، أو ينظرون فيما يصلح بالحياة الاجتماعية •

وقد توطد نفوذ هذا المجلس ، واستمرت أعماله ، حتى نشأ عنه شبه دستور ، يتبعه المسيرون في كل بلدة ، وبهذا الدستور ، أو الاتفاقيات كما تسمى ، كثر الخير ، واستقامت الأمور واجتمعت الكلمة •

وكبار العزابة - ثلاثة من كل قرية - هم الذين يختارون رئيسا منهم لتسيير المجلس ، وهم أعضاء دائمون ، ويستدعون من يرون ترشيحه للحضور في الاجتماعات الطارئة غير الدورية ، وهم الذين يتولون الكتابة أيضا في الجلسات ، وتسند غالبا الى ممثل مليكة ، حسب ما يقال ، ومن المؤسف أن التاريخ لم يبق لنا ولو سجلا واحدا ، من هذه السجلات التى تسطر فيها ، مداولات المجلس ، حتى نستطيع أن نأخذ صورة منها للحياة الاجتماعية ، فى تلك المهود •

ولم يبق التاريخ من اتفاقيات هذا المجلس الا نحو مائة وخمسين اتفاقا ، أو بندا ، كما قيل ، ولو أننى لم أر الا نحو أربعين منها •
ويذكر الشيخ أبو اليقظان - أمد الله فى عمره - أن أقدم اتفاق رآه لهذا المجلس يرجع الى سنة 807 هـ •

وينعقد هذا المجلس بمسجد الشيخ عبد الرحمن الكرثى دفين مقبرة مليكة ، وهو من علماء القرن السادس الهجرى ، وكان معاصرا للشيخ ابى عمار عبد الكافى الورجلانى ، والشيخ ابراهيم بن مناد



صورة لمقر المجلس ، بمسجد الشيخ عمى سعيد خارج مدينة غرداية

العطاوى ، أو بمسجد الشيخ عمى سعيد بن على الجربى المتوفى فى
الخمسين الأولى من القرن التاسع الهجرى ، والمسجد بجانب المقبرة
المنسوبة اليه •

والاتفاقيات التى تحصل فى هذا المجلس الجهوى ، تأخذ
أحيانا طابع المحافظة على الأمن ، والحد من الفوضى ، وأحيانا طابع
الاصلاح الاجتماعى ، وحمل الناس على ما يصلح بهم ، وعند ما
يحصل اتفاق فى قضية يسجل ذلك فى محضر الجلسات ، ويمضى
من طرف الحاضرين ، ثم يتلى على الناس فى المساجد ، عند تجمعهم
للصلاة ، وغالبا ما يكون ذلك ليلة الجمعة ، قبل صلاة العشاء ،
فيصبح قانونا محترما ، يسهر ذو الاصلاح على تنفيذه •

نموذج لاتفاقيات عمى سعيد

نأخذ من هذه الاتفاقيات المتعددة نموذجين لها فى موضوع
واحد، موضوع المحافظة على الأمن، والحد من أعمال المشوشين وذوى
العصية ، ومن يأويهم ، أو يساعدهم •

• • • • هذا ، وان خمسة قصور اجتمعوا فى مسجد الشيخ عبد الرحمن
الكرثى ، فى شهر شوال سنة 1052 هجرية ، واتفقوا على أن من يحمل
الحديد - فعليه - غرامة ، عقوبته خمسة وعشرون ريالاً ، والنفيان (I)

(I) المراد بالنفيان : اخراجه من مزاب لمدة تعين ، حسب عظم جرمه •

والحمية العصية غرامتها خمسة وعشرون ريالاً ، والذي عاقبته
الجماعة بغرامة فناف وتعصب له غيره يغرم خمس ريالات ، ومن
تعدى بزيادة الماء فى الغابة «أى ماء السيل» لغابته ، أو لساقيته ،
بالزيادة على المقياس الموجب له ، فغرامته خمسة وعشرون ريالاً ،
والنفيان، ومن غضب من بنى عمه ، وصار يشوش بين العشائر فغرامته
خمس وعشرون ريالاً ، والنفيان ، ومن ناف عليه ، فمثل ذلك» اهـ

وهذا اتفاق من نفس النوع ، وقع بعده بمدة طويلة بعد مائة
وخمسين سنة، روعى فيه تغيير الاوضاع، فكأنه تعديل للاتفاق السابق.
• • • • وبعد فقد اجتمع خمسة قصور فى مسجد الشيخ عمى

سعيد ، واتفقوا على من رفع الحديد ، وأشار به ، ولم يضرب ، بل
شال بيده ومنع ، فغرامته خمسون ريالاً ، وان ضرب به فغرامته مائة
ريال ، والقصاص ، والنفى ، وان وجب الانصاف على أحد ، وذهب
اليه المقادير (I) ، ليأخذوا منه الواجب ، وعجز عن الدفع يأخذون
ما وجدوا من أثاث الدار ، ويبيعون منه مبلغ الواجب ، وان قال أحد:
أتركوه وأنا أدفع عنه فانهم يتركونه ، ويأخذون من التكلم عليه ،
وان لم يدفع يخرج من البلد ، ولا يرجع اليها حتى يسلك (2) ، ومن

(I) رؤساء العشائر •

(2) أعنى يدفع ما عليه •

وقف له المقادير فنهزمهم ، أو سبهم ، أو عصى أمرهم ، فعليه غرامة خمسة وعشرين ريالاً ، وإن بعثوا له وصيف (I) العرش ، أو غيره ممن يرسل إليه ، فسبه ، أو ضربه ، أو عصاه ، فغرامته سبع ريالات ، منها ريالتان للوصيف ، وخمسة للعرش (2) ، هذا ما اتفقوا عليه . وقع ذلك في أواسط شعبان سنة 1199 هـ كاتبه الشيخ عبد العزيز بن صالح بن حمو ، ♦

والطريف في الموضوع انه اذا تمردت جماعة ، أو أشخاص ، وأبوا الانصات والخضوع لهذه البنود ، يعلقون عليهم المسجد ، أعنى أن العزابة يمتنعون عن القيام بمهامهم ، ويعتصمون عن المسجد ، حتى تمتثل تلك الجماعة الشاذة ، وذلك بتأليب الرأي العام عليها ، وهذا نوع من الاضراب ، أو العصيان المدني ، عرفته مزاب منذ القديم . ♦

كما نجد أن هذا النوع من العصيان المدني قد اتخذ شكلاً ظاهراً فيما بعد أيام الاحتلال واتخذوه سلاحاً ، كثيراً ما أزعجوا به سلطات الاستعمار ، كما وقع ذلك في قضية التجنيد الاجباري سنة 1911 عند ما حاول الفرنسيون فرضه على الأهالي ، ولهم في هذه القضية

(I) وصيف العرش : عبد محرر يتولى خدمات الهيئة المدنية .
(2) يبدو أن الاموال التي تجمع من الغرائم تجعل في المصالح العامة - كيس العرش - .

مواقف يتجلى فيها التضامن الشعبي في أروع صوره ♦
وربما وقع هذا النوع من المظاهرات الشعبية عند ما يفرض قانون عليهم يخالف الشريعة الاسلامية ، أو مصلحة المواطنين ♦
فهذه رسالة للشيخ اطفيش بخطه للوالى العام بالجزائر ، يصف فيها غضب الشعب ، وتظاهره على القانون القاضى : ان الدولة تترث من لا وارث له ، ولا حق لذوى الأرحام فى الارث :

« انى أرسلت اليك أولاً ، وثانياً ، فى شان ميراث ذوى الأرحام ، فانه فى كتاب الله فلا تغيروا دين الله ، وقد ذكرت لك الحجة من القرآن ، والحديث فى الكتابين ، فلا يكون ميراث ذوى الأرحام الا لهم ، ولا يكون لبيت المال ، فان بنى مضاب ، طلبه وعواما ، وقضاة ، وقوادا ، كلهم لا يطاوعون فى ذلك ، وقد اجتمعوا خارج القرى فى الشمس ، على أن يضعوا طوابعهم على ذلك ، ويمتنعون من أن يكون لبيت المال شىء . » اهـ

انه مجلس علم

لنعد الى موضوعنا ، الى الحديث عن مجلس عمى سعيد ، أحيانا يصبح هذا المجلس مجلس علم وبحث يضم فقهاء ، يناقشون ويقابلون بين الآراء الفقهية ، ليحملوا الناس على قول واحد ، فى حكم شرعى ،

تلافيا من اختلاف العلماء ، وتعدد الأقوال الفقهية ، حتى لا يناقض بعضهم بعضا ، فيرجحون رأيا ، ويتفقون عليه ، لما فيه من مصلحة للعامة ، أو موافقة لروح الشريعة الاسلامية .

وهذا اتفاق من هذا النوع ، وقع سنة 1240 هـ ، بعد أن يؤكّدوا الاتفاق الواقع في القرن العاشر من نفس النوع :

«وبعد فإن العلماء المجتمعين في مجلس الشيخ عمى سعيد ، قد اتفقوا على أمور تصلح لفتاويهم ، حتى لا يختلفوا ، وتكون ملجئا لهم ، ولمن يأتي بعدهم ، لأن أقوال العلماء كثيرة ، فقصدوا باتفاقهم عدم الخلاف ، وعدم نقض بعضهم على بعض .»

من ذلك ما وقع عليه الاتفاق سابقا في روضة أبي مهدي عيسى بن اسماعيل (I) في زمان الشيخ محمد بن زكرياء النفوسى البارونى ، وهو ثلاثة أشياء :

أحدها : الدعى يلحق بأمه وأخواله ، لا بمن زنى بالمرأة .
ثانيها : نكاح السر قد فشا في ذلك الزمان فقطعه ، لأنه منسوخ في الشرع .

ثالثها : ان الأقرب لا يرد الوصية الى الثلث ، اذا أشغله الميت بشىء ، أى شىء ، وكذلك المرأة اذا كانت في بلد من بلدان مزاب

(I) من علماء قرية مليكة ، ونزيلها ، توفى سنة 971 هـ .

فان ارادت أن تتزوج رجلا في مدينة ، غير مدينتها ، فان عقد نكاحها يكون في البلد التى هى فيه ، لا في المدينة التى فيها زوجها ، لأن ذلك أصلح لمعرفة حالها ، ومن أولى بتزويجها من أوليائها .
ومما وقع عليه الاتفاق الآن :

ان عرف شىء من الأصول والأملاك لأحد ، فدخل عليه رجل آخر فقام به على الحيازة يحرث ، ويحصد ، ويتصرف ، ويشغل ، ويعطى ، ويمنع ، وصاحبه حاضر ؛ دون غائب وطفل ومجنون ، حتى مضى على ذلك عشرون سنة ، فان المتصرف الحاضر ، يأخذ ذلك بالحيازة .
ومن ذلك : ان الدين اذا أظهره أحد بعد عشر سنين ، ولم يطلبه صاحبه ، ولا وقع عليه التحجير ، والطلب ، فليس له بعد تلك المدة سبيل الى طلبه .

ومن ذلك : أن المرأة اذا طلقها زوجها ، وهو غائب عنها ، فأشهد شهودا له في غيبته انه طلقها ، فلما وصل الخبر للزوجة ، فانها ترفع عدتها من اليوم الذى وصلتها الشهود في بلدتها (I) ، ولا تعتبر باليوم الذى شهد فيه الشهود في الغيبة ، لأن العدة من المرأة عبادة ، والعبادة لا تصح الا بالنية ، ونيتها لا تصح الا بوصول الخبر اليها اه

(I) يريد أنها تبدأ عدتها من يوم وصول الخبر اليها .

وكتب هذا الاتفاق في اليوم الحادى والعشرين من شعبان سنة 1245
بخط الشيخ الحاج يوسف بن حمو ♦

وهو محكمة استئناف

وهناك مجلس آخر ينعقد بمسجد الشيخ عمى سعيد أيضا ، له
طابع القضاء ، والفصل بين الخصوم ، يحضره ثلاث مشائخ من حلقات
العزابة ، ممن انتهت اليهم رئاسة العلم ، والتفقه فى الدين ، للنظر فى
قضايا الخصوم ، الذين يرفعون اليه دعاويهم ، بعد أن نظر فيها
مجلس عزابة القرية ، فهو بمثابة مجلس استئناف لمحاكم العزابة
الابتدائية ، ويمين رئيس المجلس ، من بين المشائخ الثلاثة كل سنة ،
وقد باشر هذا المجلس نشاطه الى أوائل القرن الحالى بعد الاحتلال ♦
وبعد فهذه نماذج قدمتها ، من ثمرات جهود متواصلة ، استمرت
مآت السنين ، يتجلى فيها بعد النظر ، وديمقراطية الحكم ، والتسامى
عن حظوظ النفس ، وأنانية التسيير ، جهود تدعو حقا الى الاعجاب ،
والاكبار ، جاءت من جماعة نائية عن تيارات الحضارة ، منزوية فى
رمال الصحراء ♦

ربما قد وفقت الى اختيار عينات منها ، وربما ما تركته أحسن ،
وأقوى ، قدمتها للقارىء الكريم ، ثم أتركه لنفسه ، يقارن ويستنتج !

وقد حاول المصلحون من العزابة وغيرهم احياء هذا العمل
الجليل - الذى أجهزت عليه سلطات الاحتلال - فى عهد
الاستقلال ، فدب النشاط من جديد ، ولكنه أخذ طابعاً
خاصاً ، ضيقاً ، الطابع الدينى تحضره العزابة فقط ليساعد بعضهم
بعضاً فى القيام بمهامهم الثقيلة ، مهمة الاصلاح الاجتماعى
والدعوة الى مبادئ الاسلام والمحافظة عليها .

المجالس العائلية

لا يفوتنا ، ونحن نتحدث عن الحياة الاجتماعية ، أن نذكر
ديار العشائر ، أو المجالس العائلية لكل عشيرة ، فى هذه القرى ،
وذلك أن غالب سكان هذه المدن ينتمون الى عشائر ، وحتى
الوافد من قرية الى أخرى على نية الاستقرار ، عليه أن ينظم الى
عشيرة ، فيصبح نزيلاً فيها ، له ما لأبنائها .

وكل عشيرة لها رئيس ، أو كبير العشيرة ، يتصف بالصلاح
والتضحية ، ويتمتع بسمعة طيبة ، بين أبناء القبيلة ، فيلتفون حوله ،
يسهرون على مصالح أفرادها ، ويحافظون على سيرة أبنائها ، فلا
ترى فيهم يتيماً ضائعاً ، ولا مقعداً معوزاً ، ولا أرملة استضعفت ،
ولا غائباً ضاع حقه ، وفيما اذا انحرف أحد أبنائها ، أو بناتها ، يحاولون

اصلاحه ، وتأديبه في حدود استعمال أسلوب التأثير النفسى عليه .
وكثيرا ما فضت مشاكل ، وخصومات ، بواسطة هذه المجالس
لو تركت لاستفحل داؤها ، وعز علاجها ، وغالبا ما يشاهد نشاط
هذه المجالس في أيام الأفراح ، أو الأتراح ، اذ يعتبر عرس أحد
أبنائها عرسا لجميع العشيرة ، ورزء أحد أفرادها رزءا للقبيلة كذلك .
ولا نفعل عما يحدث هذا التضامن ، من تكاتف ، واخوة بين
أفرادها ، الا أنه يشتد أحيانا هذا التضامن ، ويتغالى فيه ، فيصبح
آن ذاك ، عصية لا مبرر لها ، يجبر من ورائه فتناء ، واحنا اذ أسى
استعماله ، وقديما قيل : الفضيلة توازن بين العواطف .
وقد ضعف شأن هذه المجالس العائلية ، وخف نفوذها في هذه
السنين الأخيرة ، نتيجة لتغير المفاهيم ، وعزوف الناس عما يقيد من
حرياتهم - ولو لصالحهم - ثم سوء التصرف الذى يحدث من بعض
المسؤولين أحيانا . وبزوالها يزول خير كثير ، وتخسر مزاب تضامنا
اجتماعيا ، فريدا من نوعه ، ومراقبة عائلية، يشهد لها التاريخ بالفضل
المعظم .

الحياة الاقتصادية

رأينا فيما سبق ، كيف استطاع هؤلاء ، أن يضمنوا لأنفسهم
مجتمعا نقيما مبنيا على اعطاء الأولوية للدين ، وما يأمر به من مبادئ
أخلاقية ، - وقد تجلّى ذلك في نظام العزابة - ومبنيا أيضا على
التضامن الاجتماعى ؛ الذى يجعل المواطن يقدر مصلحة الجماعة ،
والمساكين ، قبل مصلحته هو ، وأن كل ما تتفق عليه الجماعة خير ،
وفضل ، وأن الشاذ عنها بعيد عن الخير ، والصالح . وفى الحديث
الشريف : «من فارق الجماعة ، مات ميتة جاهلية» .
وسوف نرى فيما يأتى ، ثمرات هذا التضامن ، متجلة أيضا ،
فى الكفاح المرير ضد الفقر الطبيعى ، والجفاف ، وشح الأرض فى هذه
الأماكن التى نزحوا إليها ، واستقروا فيها ، عن طواعية .
فكفاحهم فى هذه الناحية ، كان كفاحا مستميتا عنيدا ،
لا يستطيع أن يظفر الواحد بشمرة أو قوت ، الا بجهد
جهيد ، أرض صخرية ، أماكن الحرث فيها محصورة بشريط ضيق ،
يحصره الجبل الصخرى ، والوادي المحصب ، ومياه قليلة جدا ،
تستخرج من باطن الأرض يحفر عليها الى عمق 50 مترا ، وشح فى

الأمطار لا تنزل الا مرة ، أو مرتين في السنة ، وربما لا تنزل أصلا .
واذا نزلت كانت عاصفة ، خاطفة ، غزيرة ، لا تمر عليها ساعة ، الا
وقد انزلت عن الجبال ، لا تلوى على شيء ، ولا يريثها شيء ،
فيغمر الأودية سيل جارف ، سريع التيار ، ينتهي الى رمال وادي
انقوسا ، فتبتلع كل شيء ، وبعد أيام قلائل ، لا ترى للماء أثرا .

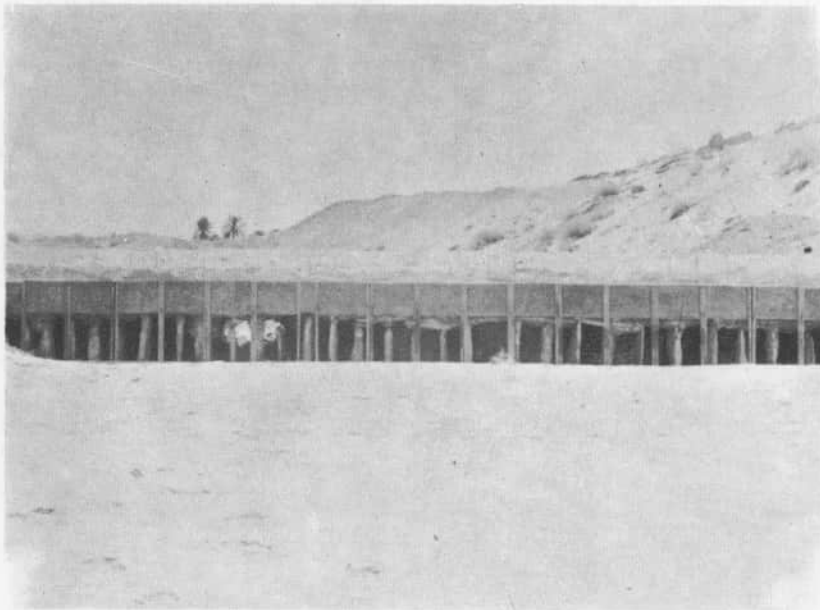
على هذه الحالة اتجه الكثير منهم الى السعى المضنى ، وراء
الأرض يستدر منها قوته ، وقليل منهم يتجه الى شمال القطر ،
متاجرا أو عاملا ، لفترة من الزمن ، ويترك أهله ، وأولاده وراءه ، ثم
يعود اليهم ، بما جمع من ثمرة عمله ، ان قدر له ولها السلامة ، من
قطاع الطرق . وكثيرا ما تحكى لنا الجدات - ونحن صغار - حكايات
ترك الأفواه فاعرة ، عن تفانى شخص ، فى إنشاء مزرعة - ان صح
التعير - أو جلب الماء الى نخيلات - كانت كل ما يملك من الدنيا -
وقد رآها يلهبها العطش بعد أن غار الماء من بثره ، أو عن وفاء
زوج لزوجته وصناره ، انتظروه ، وانتظروه فقراء ، معوزين ، ووفائهم
له . ولا يفتننا أن نلاحظ أن ما نذكره هو ما كان فى التاريخ
الماضى ، أما الآن فقد تغيرت الأوضاع كثيرا .

توزيع مياه الأمطار

لعل أول ما اتجه اليه المزاويون بعد استقرارهم فى الوادى ، هو

توزيع هذه المياه التى تجود بها الطبيعة أحيانا ، وخبزها ، والاستفادة
منها قبل أن تبتلعها الرمال .

وتوزيعها يتطلب معرفة جيدة بالأراضى ، وهندستها ،
ومساحاتها ، والزيادة ، أو الاجحاف يثير غضب المالك للمزرعة ،
لأن هذا الماء هو كل شيء عنده . فلذا نجد فى نهاية كل واحة ،
حيث ملتقى شعاب الأودية اليابسة ، سواقي مبنية ، تتلقى المياه ،
التي تسيل على مناكب الجبال ، عند الأمطار ، وتوزع بواسطتها ،



منظر لتوزيع مياه وادى بوشن بغرداية - تم هذا التقسيم سنة 1707 م

خلف هذه السدود ، فسرعان ما تتشربها الأرض ، وتمتلىء بها الآبار ، الا أن الله تعالى ، رؤوف بعباده ، فهناك داخل الأرض على بعد ، طبقة صخرية ، تحجز تلك المياه هناك ، فيستخرجها الفلاح بواسطة النرح من البئر ، يسقى بها زرعه ، ونخيله ، لعام أو عامين ، ريثما ينزل المطر من جديد ، أو تأتي الرحمة كما تسميه العامة ، فيقولون رحمنا الله ، في تاريخ كذا ، أو الرحمة تأخرت هذه السنة. أما كيف بنيت هذه السدود الضخمة ، والسواقي العديدة ؟



منظر للسد الكبير بواحة يسجن ، طوله حوالى 600 م وارتفاعه 8 م

توزيعا عادلا ، فتمر تلك المياه فى سواقي عريضة ، يتراوح عرضها الى نحو 150 م ، وفى مدخل كل غابة ، أو مزرعة ، فوهة تضيق ، وتوسع ، حسب مساحة أرضها ، يتسرب منها الماء اليها .

وتنتهى تلك السواقي أخيرا ، وتلاقى فى بطحاء واسعة ، بنى لها سد متين تتجمع وراء المياه ، بعد أن تمر ، وتخلل الحدائق كلها ، وهذه السدود الكبيرة ، تقوم بمهمة خزن المياه ، وحجزها ، فلا تذهب الى الرمال التى تنتظرها . ولكن سوف لا يطول بقاؤها



منظر آخر لتوزيع مياه ساقية يسجن - كذيت خردايت

ومن كان يقوم بتكاليف بنائها ؟ ومن رسم هندستها المحكمة ؟ مع ضعف ثقافة هؤلاء ، وقلة ذات أيديهم ! فأمر يبعث الدهشة ، ويحملنا على الاكبار ، والتقدير لمجهود هؤلاء الرجال ، وما بذلوه من تحد عنيد ، وانه لأروع مثال للتحدى الذى نشأت عنه وتولدت حضارات الشعوب مدى التاريخ .

والشئ الذى له أعمق الأثر فى حياة هؤلاء ، وبه استطاعوا أن يتغلبوا على هذه الصعوبات ، وأن يقيموا هذه المنجزات ، هو



منظر لسد مليكة يحجز مياه وادى مزاب

التضامن العجيب الذى وجد بين هؤلاء ، فكان الواحد منهم لا يخل بباله ، أو رأيه ، أو خبرته . ثم الارادة الدؤوب ، والنشاط فى ممارسة الأشغال ، الذى طبع عليه العنصر البربرى منذ القدم ، وامتاز به ، وأخيرا تلك الحملات الجماعية ، التى يقومون بها ، «توزيعه» فيعينون يوما ، أو عشية ، يخرج فيها كل من كان فى القرية ، من ذوى الاستطاعة ، ويقومون معا بالعمل كل بما يحسنه ، وهكذا فى كل عشية ، أو يوم خاص من أيام الأسبوع ، فلا تمر أسابيع ، أو أشهر ، الا وقد أنجز بناء الساقية ، أو تنظيفها من الرمال ، أو ترميم السد النخ . وربما يتهاون شخص ، فيركن الى الراحة ، ويتخلف عن مواطنيه ، ولكنه لا يسلم من تعيير النساء له والأطفال اذا رىء فى الشارع . وربما لا يسلم حتى من ضميره ، فيؤنبه ، وكأنه اقترف ذنبا ؛ اذ المتعارف فى مزاب ، ان مثل هذا التصرف نوع من خيانة المسلمين ، والقعود بهم ، يعاقب الله عليه ، فيقولون فى شأن هذا : «فلان خان العرش» .

وهذه الحملات الجماعية تقام أيضا ، فى مستوى الناحية الواحدة أو بين الجيران ، أو الأصحاب ، فيعينون يوما لهذا ، ويوما لذلك ، حتى تنتهى حملة الحصاد ، أو بناء الدار ، أو حفر البئر ، وعلى صاحب العمل أن يهيبء المواد الأولية ، فقط ، وربما الطعام أيضا لمساعديه.

ويحكى لنا الشيوخ أنهم أدرکوا زمانا ، كان من المتعارف فيه ، أن الشخص الذى يبنى دارا ، أو ينشئ بئرا ، يستطيع عند ما يريد وضع الأخشاب لجعل عليها السقف ، أو إقامة الصخائف العارضة لفم البئر ، أو صهريج الماء «أسفى» يستطيع أن يخرج الى الشارع فيستوقف من يمرون ، أو ينادى : يا مجاهدين ، فما تسمع صيخته حتى يترك كل شخص عمله ، ويهرع اليه ليساعده لمدة من الوقت ، على القيام بمثل هذا العمل الشاق ، الذى لا يستطيع أن ينجزه بمفرده .

وبما تقدم ، استطاعوا أن يحفروا فى واحات الوادى ما يربو عن أربعة آلاف بئر ومائة ، يتراوح عمقها بين 25 مترا الى 60 مترا حسب سمك طبقة الأرض. وغرسوا نحو 170 ألف شجرة من أشجار النخيل ، حسب الاحصائيات التى أوردتها المهندس الفرنسى فيلن FELIN ، فى مؤلفه الذى أصدره سنة 1908 .

الأبراج و الأسوار

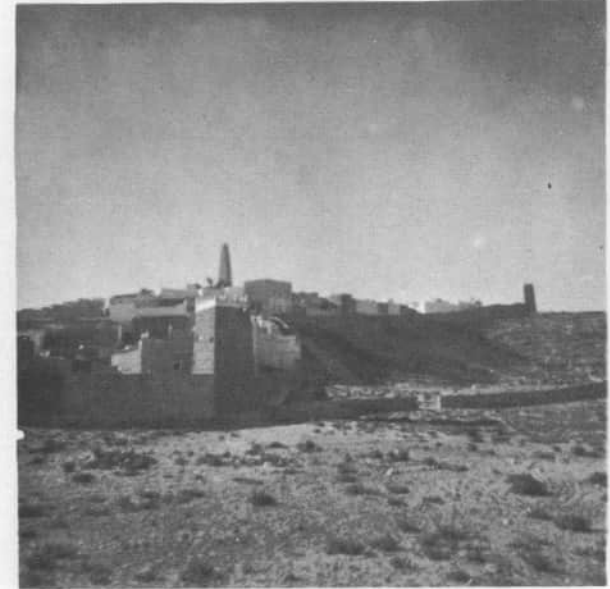
الأجنة فى مزاب حملت الناس مشقة عظيمة ، وهى الى الآن تحمل مالكيها خسارة ، ومصاريف لايفى مردودها الا بنحو النصف مما يصرف عليها، رغم وجود الآبار الارتوازية أخيرا ، ولكنها كانت

ضرورية لحياة السكان ، كما هى الآن ضرورية لتوفير الراحة ، وتخفيف حرارة الجو ، والترفيه عن الأهالى .
فعلاوة على قلة المياه ، وضيق مساحة الأرض الصالحة للزراعة كانت هذه الأجنة ، وهذه الثمرات ، تهدد من حين لآخر ، بغارات أهل البادية ، ولا سيما عند ما تمسك السماء ، وتجذب الأرض .
فلصد هذه الغارات المفاجئة ، التى كان الباعث عليها غالبا هو الفقر والجوع ، يشاهد السائح الآن فى مزاب أبراجا بنيت فوق



منظر لأبراج الحراسة فى واحة يسجن

لجبال ذات ثلاث أو أربع طبقات ، تحيط بالواحة ، ويلاحظ كذلك أنها بنيت على معرفة تامة ، وحسن اختيار للموقع ، فهي متقابلة ، وفي أماكن مرتفعة تمكن الحراس من إعطاء اشارات لبعضهم بعضا ، بواسطة الأضواء ، فينتقل الخبر بسرعة البرق ، من برج الى آخر ، حتى يصل الى القرية ، فيتأهب أهلها للخروج ، أو لفتح أبواب المدينة المسورة ، فلا تصل الجماعة المغيرة آخر الواحة ، الا وقد تهيأوا لها ، واستعدوا لصدها عنهم .



منظر جانبي لهذا السور

ولا شك أن بناء هذه الأسوار ، وهذه الأبراج ، قد أثقل كاهلهم ، وكلفهم ثمنا فادحا ، فلذا نجد بعض القرى اكتفت بتسوير بعض النواحي فقط ، وما يبقى غير مسور ، تولى الديار ظهرها له ، فتصبح تنمة للسور ، ولا يؤذن لأصحابها بفتح باب ، أو خوخة الى تلك الناحية ، وبذا توفر على نفسها نفقة تسوير المدينة ، بينما تجد بعضها كبنى يزقن «يسجن» محاطة بسور ، وسمك هذا السور يقارب المتر فى أسفله ، ثم يضيق قليلا قليلا ، حتى يبلغ نحو من خمسين سنتيما ، ويبلغ ارتفاعه ثلاثة أمتار ، وقد أنجز هذا السور على مرحلتين فقد كان قصيرا ثم زيد له أخيرا حوالى 1860 - 1868م .
واذا لاحظنا أن طول هذا السور هو ألفان وخمسمائة متر نقدر مدى فداحة الثمن الذى تحملوه لبناء مثل هذا السور ، مع أنه لا خزينة دولة هناك ، ولا سلطان يجبى الضرائب ، ولا قائد يسخر الناس ، انما هناك المصلحة الجماعية ، والتضامن بين السكان الذين يتحملون كل شىء وحدهم ، مع فقرهم ، لولا بعض التجار الذين لا يخلون بثروتهم على اخوانهم المواطنين ، وعددهم قليل فى تلك الفترات . ثم حسن التدبير ، وحياة التقشف التى يسير عليها المساكنون .

وموارد ميزاب الاقتصادية فى الحقب الماضية ، لم تكن محصورة

ستين أو ثلاث ، فيتأذون كثيرا ، ويضطرون الى البحث عن سوق آخر .

أوقاف المقابر

ربما يجد القارئ الكريم ، فى هذا العنوان شيئا من الغرابة ، والمراد بهذه الكلمة ، ما تركه الموتى من أوقاف ، معلقة فى أملاكهم ، التى كانوا يملكونها ، ينفذها من تتقل اليه تلك الأملاك كل سنة مدى الدهر ، حسب رغبة المحبس ، ووصيته . ثم ما يتصدق به الناس ، ترحما على موتاهم ، عند ما يشرع فى تنفيذ تلك الأوقاف الخيرية .

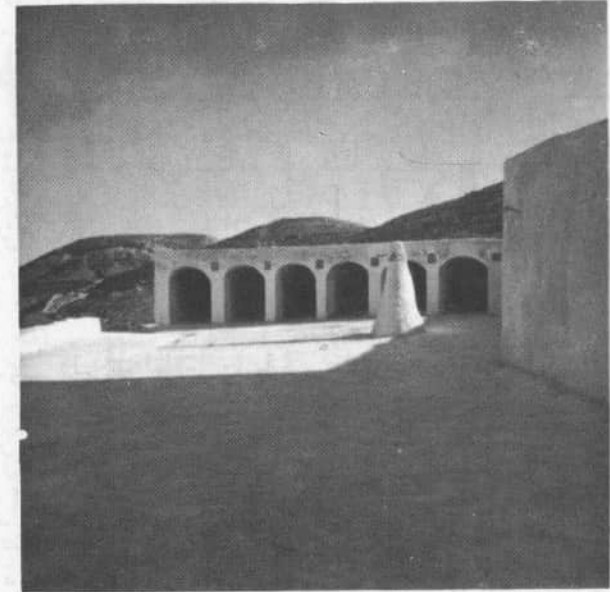
وفيما يلى أقدم لك صورة لهذا العمل الجليل :
فى أشهر معينة من شتاء كل سنة ، يشرع عزابة كل قرية ، من قرى مزاب ، ولا سيما القرى العتيقة ، «الخمسة» فى تنفيذ هذه الأوقاف ، ففى الصباح الباكر من كل جمعة ، - وهو يوم تفرغ وراحة ، لدى كل المواطنين - يذهب العزابة ، ومن يحفظ شيئا من القرآن الكريم ، من الطلبة ، وحتى تلاميذ المدارس ، الذين يحفظون أربعة أحزاب ، فما فوق ، يخرجون الى مصلى مقبرة معينة ، من مقابر البلدة ، فيجلسون هناك يرتلون القرآن جماعات ، ويدرسونه ، وبعد صلاة العصر تتوافد على المصلى بقية المواطنين ، من سكان

فيما يدر به هذا الشريط الضيق من الأرض ، - ولو أن المورد الهام كان منه - فينبغى أن يضاف الى هذا ، ما تقوم به المرأة المزابية ، من صناعة الصوف ، والقيام بمختلف أنواع النسيج ، فالمرأة فى مزاب كانت درع الرجل فى الاقتصاد ، ومغالبة الفقر ، لا تعرف مللا أو ميلا الى الراحة والدعة ، ولذلك اشتهر مزاب فى القطر الجزائرى بكونه سوقا للمنسوجات الصوفية ، تستوردها منه القوافل التجارية ، وكانت كلها تقوم على أكتاف المرأة المزابية خاصة ، فالرجل من العيب عندهم أن يحترف هذه المهنة . وكان المزايون الى أواخر القرن الماضى ، يفرحون بأصدقائهم أولاد نائل ، وغيرهم من القبائل الضاربة فى النجود ، ويكرمون وفادتهم ، عند ما تقصد مزاب مرة ، أو مرتين فى السنة ، لبيع ما عندهم من خيرات أغنامهم ، وشراء ما تجمع عند الآخرين من منسوجات الصوف الفاخرة ، وغالبا ما يقع ذلك بالمقايضة : أى استبدال سلعة بسلعة .

وبهذا النوع من البيع نعلل ما يذكر الشيوخ انه كانت تزعمهم جدا المناوشات التى تقع بين هذه القبائل أحيانا ، يغيرون اثرها على أموال بعضهم ، عند ذلك يكف غالب المزايين من شراء ما يأتون به ، تحرجا من شراء مال حرام ، أخذه غاصب من أهله ، لما لعمال المسلم من حرمة عند أخيه ، وربما تستمر هذه الاغارات

المدينة وغيرهم ، فيشرع في تفريق تلك الأوقاف ، وتوزيعها على الحاضرين ، وقد كان يؤتى بها الى مصلى المقبرة منذ الصباح .

وهذه الأوقاف تتكون من طعام مهيب من نوع خاص ، روى في اعداده عدم تسرعه للفساد ، وامكان حمله وتفريقه بسهولة ، وغالبه : كسكس بسمن ، ولحم ، أو تمور أو خبز ، فمنه ما يؤكل هناك بعد أن يتحلق الناس حلقا ، ومنه ما يفرق عليهم ، وعند ذاك يكون الطلبة ، والعزابة قد أنجزوا تلاوة القرآن من الفاتحة الى



مصلى مقبرة الشيخ أبي محمد

الخواتيم ، التي ترتلها معهم العامة . ثم يرفعون أكفهم بالدعاء الى الله ، فيفترقون مع أذان المغرب ، ويتكرر هذا العمل كل يوم جمعة طيلة شهرين ، أو ثلاثة أشهر الشتاء .

والأمر يبدو لأول وهلة أنه ليس بالشئ المهم ، ولكن اذا تأمل الشخص جيدا ، وتصور البيئة المجذبة ، وظروف العيش القاسية ، في البوادي ، ثم لاحظ ما يتجمع من هذه الصدقات من خير كثير ، (I) وكيفية توزيعها ، يتضح له أن واضع هذا المشروع الانساني بعيد النظر ، وانه حكيم الى أبعد حدود الحكمة .

ففي أشهر الشتاء يقل العمل ، ويشد البرد ، وتنقطع ثمار الفلاحة ، فتحتاج الأسر الى مؤونة أوفر ، وغذاء أكمل ، وأقوى ، فاذا فرقت هذه الصدقات على الناس بما فيها من غذاء كاف من سمن ولحم وقمح ، وتكرر توزيعها في كل أسبوع لمدة طويلة ، ألا يكفيهم ذلك شطرا من مؤونتهم ؟ ثم كيفية توزيعها الاشتراكي العام ، لا يخصص بها فقير فقط ، فلا يحوج الى اراقة ماء وجهه ، أو جرح كرامته ، بتقييده في قائمة الفقراء ، ووقوفه أمام مركز من المراكز ، ينتظر الصدقة ، فالكمل يقصد المصلى ليحضر في خمة

(I) نستطيع أن نقدر هذه الاوقاف بنحو مائة قنطار قمحا سنويا ، وهذا اذا قدرنا أن في المدينة 1000 دار ، والمدينة تزيد أو تنقص عن هذا .

القرآن ، والكل يتقبل الصدقة الموزعة ، والكافى يمدّها لمن بجانبه ، أو يحملها الى منزله ، فيمدّها أهل المنزل ان كانوا فى غنى عنها الى أرملة أو فقير بجوارهم ، انه مشروع يذكرنا بوجه الاسلام الصحيح الذى كان عليه الصحابة والتابعون رضوان الله عليهم ، متضامنين ، متآزرين ، وهى صورة للتضامن الذى يريده الله من المجتمع المسلم ، ونظيف الى هذا أيضا تذكير الطلبة بالقرآن،فهو فرصة وموسم لتذكّر القرآن ، وتدارسه ، وتشجيع للتلاميذ على حفظ القرآن والتنافس فيه ، لأن القارىء يخص بنصيب أوفر .

وقبل أن ننهى حديثنا عن هذا العمل الخيرى ، لا يفوتنا أن نبدى رغبتنا فى ادخال بعض تحسينات على هذه الأوقاف ، فيما يخص توزيعها ، واستبدالها بنوع آخر ، ونتجراً على العزابة والفقهاء فى هذه الرغبة ، فنظامها رغم اصالته وعمقه ، نظام قديم ، وضع لعصور سبقتنا ، وقد تغيرت الأوضاع كثيراً عما سبق وتبدلت حياة الناس ، فأصبح لا يودى المهمة التى وضع لأجلها كاملة ، ولعل للعزابة وجهة نظر،فهم يتخوفون ويتخرجون من تغيير نظام ظهرت منفعتة ، وله تقدير ومكانة فى القلوب بنظام آخر يشك فى نجاعته ، وربما يودى هذا التغيير الى ضياع كل شىء .

وهذا النظام قديم العهد فى مزاب ، وربما تمتد عروقه الى عهد

المغفور له ، محمد بن أبى بكر الرينى ، عند ما كان يزور مزاب ، فى ربيع كل سنة ، ومعه طلبته ، ويقومون نحو الطلبة بواجب الضيافة ، ثم تطورت هذه العادة الى أن أصبحت لها أحباس قارة على النظام المتبع الذى نراه اليوم . والمنقول عن المشائخ ان واضع هذا النظام أعنى نظام المقابر والأوقاف وطريقة توزيعها هو المرحوم الشيخ محمد بن الحاج المعروف بالشيخ بالحاج ، دفن يسجن ، وكان ذلك فى القرن العاشر الهجرى .

الأعراس و المهور

فى مجتمع حياته الاجتماعية والاقتصادية ، على الصورة السابقة ، لا مفر من تدخل أولى الرأى والحكمة لتنظيم تصرفات المواطنين ، فى مناسبات الأفراح والأحزان ، وخاصة حفلات الأعراس ، ومهور الزواج ، ولا أكون مبالغاً اذا قلت : فى أى مجتمع شرقى تسمع صيحات ذوى الرأى فيه ، وتلملمهم من الاسراف فى الحفلات ، والغلو فى مصاريف الأعراس ، والمغالاة فى المهور . ومن التنافس الرخيص الذى يثقل ظهور الأسر ، ويكلفها ما لا تستطيع . والداء مستشر تضرب عروقه الى العهود الأولى ، فهذا عمر رضى الله عنه لم يرتح الى ما تسير عليه العامة من تنافس فى المهور ،

فغزم على تحديدها ، لولا أن ردت عليه امرأة محتجة بأن الله تعالى يقول «وأتيتهم أحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا» ، وقصته معروفة . وتلافيا من الوقوع في هذا - والناس أسارى ما اعتادوه - نجد جماعة كل مدينة - عزابتها ومصلحيها - يتفقون على تحديد المهر للبكر وللثيب ، مهما تكن أسرتها ، وجمالها . أو غنى الزوج ، أو فقره . فإذا جرت الخطبة ، ووقع القبول ، لا يبقى أمام الأصهار الجدد شيء يتفقون عليه ، إلا تعيين يوم الزفاف ، فكل شيء معين من الحلى الذي يعطى للعروس ، إلى أقل شيء كجورب تلبسه ، فلا تترك الأمور لمن لا يحسن التصرف ، فيبدد المال في غير محله ، ويبقى الفقير أعزب ، لا يستطيع احصان نفسه .

ويراعى في تحديد المهر وما يتبعه طاقة غالبية السكان ، وحالة معاشهم ، وإن شاء الغنى أن يزيد ، ويفضل ، فإلى ما بعد الأشهر الأولى من الزفاف ، حتى لا يفسد على الناس هناءهم . وحتى أيام العرس فإنهم يتفقون على تحديدها ، وكيفية الاحتفال بها ، ونوع الطعام الذي يهيأ للمدعوين إلى آخره . والطريف في الأمر أن العزابة يدعون إلى تلك الأفراح ويشاركون فيها ، وربما يسند إليهم تسييرها ، فيسهرون على تنفيذ مقرراتهم ، ويسد الباب على المتجربين . ومن حين لآخر يقع تعديل ، وتغيير فيما اتفق عليه بالزيادة ،

إن اقتضت المصلحة ، أو النقصان كذلك ، تبعا لتغير الظروف ، وتبدل أحوال الناس ، فيعلن عن ذلك أيضا في المسجد .

وغالب الأسر تتبع الخطة المرسومة ، ولا تخالف المتفق عليه إلا نادرا ، ولا يتعجب القارىء من ذلك ، فمعظمهم قد استشير في الأمر ، وسبق له أن حضر مع الجماعة ، وأعطى رأيه في الموضوع فهو في ذلك كأنه ينفذ رأيه الخاص ، وهم يشعرون أيضا أن في هذا التضيق من حرياتهم مصلحة لهم ، وإذا حصل هذا الاتفاق من طرف العزابة ، وأهل المسجد ، تضى على القداسة لما للمسجد في مزاب من سلطة روحية على النفوس . ونسجل هنا - شاكرين - ما تبذله العزابات «جمعية النساء» من نشاط في أوساط النساء ، للمحافظة على تطبيق المتفق عليه ، والبراءة ممن يخرق الاجماع ، ويتعداه ، والتشهير به ، في ملتقياتهن .

الأسواق و المسالخ

جريا وراء المحافظة على تطبيق مبادئ الاسلام ، كان في القديم أمر الأسواق والمسالخ تابعا لأهل المسجد ، من جماعة العزابة ، فيعينون من بينهم ، أو من منظمة «أروان» أمينا يشرف على السوق اشرافا توجيهيا ، فلا يسمح ببيع محرم فيه ، كما لا يسمح بتعاطى

الغش ، أو صور البيع التي لا يجيزها الاسلام ، ويراقب الدلالين ، ربما يزيدون في الشيء الذي يدلون عليه بدون الزيادة من مشتر ، أو يستبدلون سلعة بأخرى ، الى غير ذلك .

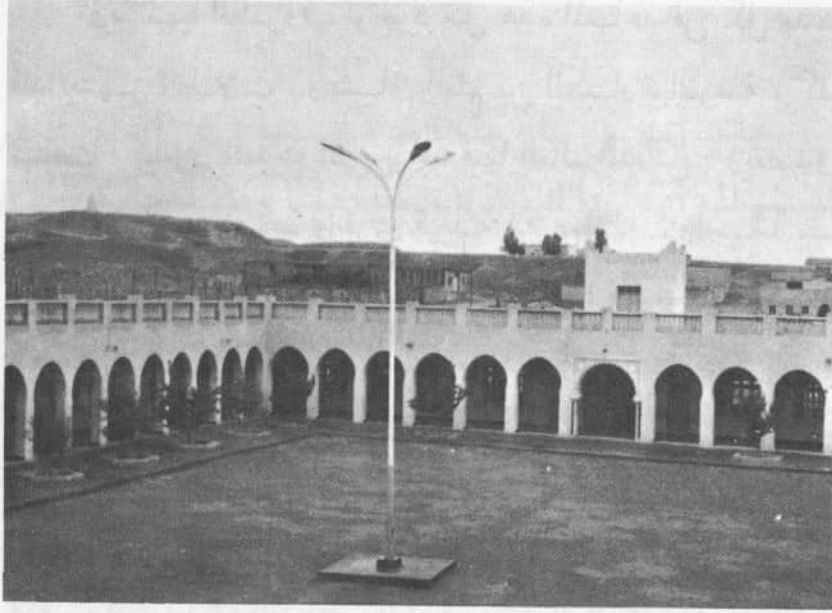
كما أنهم يعينون من يشرف على المسالخ ، فيراقب من حين لآخر كيفية الذبح ، وما يقوم به بعض المستعجلين من سلخ الذبيحة قبل خروج الروح ، أو غير ذلك من التصرفات التي تخالف السنة ، الا أن هذه المراقبة للأسواق والمسالخ قد أعرض عنها منذ زمن ، وترك الأمر الى ضمائر الناس أو الى أعوان الحكومة من شرطة ، أو أعضاء البلدية .

الحياة الثقافية

الحديث عن الحياة الثقافية في المنطقة ، وجهود المزايبين في ذلك منذ القدم ، ينبغي أن يكون في المقدمة ، فكفاحهم للجهل بالدين ، والأمية القدمية ، لم يكن بأقل من كفاحهم الاقتصادي السابق الذكر ، وانما أخرناه لما يبدو أن هذا الموضوع قد طرقه غالب من كتب عن مزاب ، وأعطى له بسطة في حديثه ، وسوف أتعرض له ايفاء بالوعد ، وتكملة للحلقات الثلاث التي حصرت حديثي فيها ، وأجمل ذلك اجمالاً .

محاضر المساجد و المدارس الحرة

لعل أكبر جهد قامت به حلقات العزابة ، وكان لها أقوى الأثر في المجتمع هو تنشئة الناشئة على التربية الدينية ، وتعليمها ، وتلقينها القرآن الكريم ، فلكل مسجد في مزاب محضرتان ، أو ثلاث محاضر تتلقى أطفال القرية ، تعلمهم مبادئ الكتابة ، واللغة ، وتحفظهم القرآن الكريم ، والمهمة لا تترك لمن لا يحسن القيام بها ، من الجهلة ،



مدرسة الحياة بالقرارة

مجلس العزابة ، شيخ جليل ، وعالم يجمع الى التحقيق العلمى ، النشاط الاجتماعى ، والرغبة فى فعل الخير ، فيجعل من داره ، أو من المسجد ، دار علم ، أو معهدا عاليا - ان صح التعبير - للتعليم الدينى ، ونشر رسالة المصطفى عليه السلام ، يؤمه الكبار والشباب فى أوقات راحتهم ، وتفرغهم من أشغالهم ، فيبارك الله فى تلك الدروس ، وتلك الجهود ، فيتخرج عنها ، علماء ومثقفون ، يحملون مشعل الهداية مدة من الزمان .

أو الذين يتخذون التعليم مدرا للربح ، ففقهاء العزابة هم الذين يتولون التدريس فيها مجانا ، وهدفهم فى ذلك قوله عليه السلام : «لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير مما طلعت عليه الشمس» .

ولهذه المحاضر أو المدارس الفضل ، فى نشر الثقافة ، ومحو الأمية ، ومحاربة الجهل ، قل أن تجد أميا فى تلك القرى .

وقد اتسعت هذه المحاضر فى السنين الأخيرة ، وأدخلت عليها تحسينات ، حتى أصبحت مدارس ومعاهد ، تتوفر فيها الشروط الضرورية ؛ من صحية وغيرها ، للتعليم . علاوة على مختلف المواد التى يجدها التلميذ المبتدىء والمتوسط . ولو أنها دائما تعطى الأهمية للجانب التربوى ، والدينى .

والحق أن الجمعيات الخيرية والاصلاحية التى كونها المواطنون كرد فعل للغزو الفكرى ، ومدارس الفرنسيين ، قد ساهمت فى تطوير هذه المحاضر ، واحداث تعليم عصرى يقابل التعليم الفرنسى الاجبارى ، فأنشئت مدارس حرة ، تابعة للمساجد أو مستقلة عنها ، يصرف عليها ، ويمون صناديقها أفراد الشعب ، وأتت هذه المدارس ثمرتها ، وكانت معقلا مكينا للثقافة الاسلامية فى القطر الجزائرى .

دور العلم

وكثيرا ما تساعد الظروف ، ويهيم الله الأسباب ، فيوجد فى

خاتمة

ها قد أتينا على نهاية هذه الجولة السريعة ، التي ان لم تشخص المجتمع المزبى في القديم ، تشخيصا دقيقا ، فقد أعطتنا عنه معالم واضحة ، تستطيع تصوره من خلالها .

كما اننى أعتقد اننى قدمت للقارىء الكريم صورة لتجربة فريدة من نوعها ، قام بها المزابيون لفترة طويلة من الزمن ، حاولوا فيها أن يجعلوا من مجتمعهم ، مجتمعا مسلما ، نقيًا ، بعيدا عن المؤثرات الخارجية التي نخرت المجتمع الاسلامى فى مختلف الأقطار ، وسلبت منه روحه (I) تجربة قد وفقوا فيها الى أبعد الحدود ، وان وجد معها الانحراف والفساد ، فالغلبة دائما لجانب التقوى والصلاح . فان كنت ممن تستهويهم المثل العليا ، ومن العقائدين ، فسوف تتحمس لها ، وتكبر عملهم ، وان كنت ممن لا تهتم المثل كثيرا ، فسوف تقول : انهم حملوا أنفسهم غنًا ، ما أغناهم عنه . والذي ياباه الحق ،

(I) يقول المأسوف عليه السيد قطب فى الموضوع : هناك دعاة يقولون : ان على المسلمين اليوم - كى يعيشوا فى العالم الحديث - أن يتنازلوا عن الفكرة الرئيسية فى عقيدتهم وهى : ان الاسلام لا يمكن أن يقوم الا فى مجتمع مسلم ، ويستبدلوا بها : أن يعيشوا مسلمين عقيده ، فى مجتمع لا يقوم على أسس الاسلام ، وهذه الغاية الاولى لرجال التبشير كما هى الغاية الاولى لأعمال الاستشراق . - هل نحن مسلمون - ص 182 .

ولا تنهيا الظروف لوجود مثل هذه المعاهد فى كل مدينة ، فلذا ينتهز الطلاب ، وعشاق العلم من الكبار ، الفرصة ، كلما سحت ، فيأتون المدينة التي يوجد فيها العالم المدرس ، ويقصدونها من المدن المجاورة - والقرى قريبة من بعضها - وأحيانا يقوم بالتدريس شيخ من مشائخ العلم ، ليس عضوا فى مجلس العزابة ، ولا مانع من ذلك ، وهدف الجميع واحد .

على هذه السيرة جرت الحياة الثقافية فى مزاب منذ قرون ، واذا أخذنا بعين الاعتبار عشرات المؤلفين الذين أنجبهم هذا الوادى وآلاف المخطوطات التي توجد فى خزائن دور العلم ، ومدى استيعاب هؤلاء للثقافة المعاصرة لهم ، ومسايرتهم للركب العلمى ، نستطيع أن نتصور هذه الجهود ، وما بذلوه من شتى الوسائل فى هذا السبيل ، التي منها الهجرة الى مراكز الثقافة فى شمال افريقيا كالقيروان ، وتونس ، لفترة من الوقت .

ولا نفعل - ونحن نتحدث عن النشاط الثقافى - أن نشير الى ما تبذله العزابات ، (جمعية النساء) فى هذا الميدان أيضا ، فلمجلس العزابات - علاوة على مهمة الوعظ ، والتوجيه الدينى - مدارس ، أو دور تثقيف للبنات . غير أن غالب هذه الدور مسيرة على الطريقة العتيقة ، التي تعتمد على التلقين ، نسجل هذا مع الأسف الشديد .

ويحيد عن الانصاف ، أن نقول عن هذا المجتمع أنه مجتمع مغلق ، معى ، كل شىء فيه غير واضح ، مع أن كل شىء فيه واضح ، أو نرمي أصحابه بضيق الصدر والتعصب مع انه فتح صدره لكل من أراد أن يندمج فيه على أن يطبق تعاليم الاسلام .

نعم ان هذا المجتمع الذى يبدو للبعض كأن له حدودا مقامة ، تظهره منعزلا ، انما كان ذلك كرد فعل للغزو الاستعماري للمسلمين فى كامل المغرب العربى ، علاوة على ما تراكم على النفوس مدى أجيال من رواسب التأخر ، والنكسة التى ابتلى بها المجتمع الاسلامى ، فى عهد الملوكية المطلقة ، أما الآن فقد تغيرت الأوضاع ، وذابت تلك الرواسب ، وبدأ المسلمون يبحثون عن الاسلام فى صورته المشرقة الصحيحة . فان رأينا من المزايبين تمسكا ببعض الانظمة التى كانت لهم ، أو ميلا اليها ، فلما وجدوا فيها من منفعة وصلاح لا يعوضها لهم نظام آخر ، والنفوس تنكر ما لم تألفه ، والا فالشعب الجزائرى المسلم ، يكون وحدة متماسكة بين أفراده ؛ وحدة سياسية متساندة على الآمال ، ووحدة اجتماعية متماسكة تجمع أفرادها كلمة الاسلام ، وقيمته العليا . فالى هذه الوحدة ، والى هذه القيم ، ينبغى أن تغير التقاليد ، والعادات مهما اختلفت الظروف ، والحكم لها ، أو عليها .

هذا وسأتبع هذا الكتيب بكتيب آخر - ان شاء الله - نخصصه لدراسة المجتمع فى مزاب فى الفترات الأخيرة ، وفى عهد الاستقلال ، ونتعرض لتقييمه ، وما ينبغى أن يكون عليه فى العهد الزاهر الذى تشهده الجزائر ، وكيف أنه لم يتخلف عن رفع راية الكفاح التى رفعها منذ قرون ، ونرجو أن لا يتخلف



المراجع

- رسالة تاريخ وادی مزاب للشيخ اطفيش
- مجموع اتفاقات مجلس عمى سعيد
- مجموع قصائد ورسائل الشيخ الحاج ابراهيم بن بيحمان
- تاريخ الجزائر للشيخ مبارك الميلي
- تاريخ الجزائر للشيخ أحمد توفيق المديني
- رجال النهضة الحديثة للشيخ دبور
- محمد عثمان باشا للشيخ أحمد توفيق المديني
- رسالة تاريخ مزاب وعوائد أهله للشيخ أبى اليقظان
- الاباضية فى موكب التاريخ للشيخ على معمر
- Etude sur la Législation des eaux dans la
Chebka du M'ZAB.

الفهرس

تقديم

- 11 منطقة مزاب
- 13 مبدأ عمران مزاب
- 17 استقرار المزايين بالوادي
- 19 مدن مزاب السبع
- 24 السبب الداعي لعمران مزاب
- 27 المذهب الاباضي و مبادؤه

الحياة الاجتماعية في المنطقة

- 38 نظام العزابة
- 40 مجلس العزابة
- 41 اتصال مزاب بالولاة العثمانيين
- 46 خضوع مزاب لسلطة الاحتلال
- 47 السلطة المسيرة في مزاب قديما
- 49 مجلس عمى سعيد
- 52 نموذج لاتفاقات عمى سعيد
- 55 انه مجلس علم

طبع بالأوفست بدار البعث
بقسنطينة - الجزائر

1970

58	وهو محكمة استئناف
59	المجالس العائلية
الحياة الاقتصادية	
62	توزيع مياه الامطار
68	الابرار و الاسوار
73	أوقاف المقابر
77	الاعراس و المهور
79	الاسواق و المسالخ
الحياة الثقافية	
81	محاضر المساجد ، والمدارس الحرة
82	دور العلم
85	خاتمة
89	مراجع البحث

